صدق الوعد
فى
تفسير سورة الرعد

إعداد

أد / هناء محمد أبو طالب

أستاذ مساعد التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة

المقدمة

- نسأل الله التوفيق -

الحمد لله الذي عنده علم الكتاب وعنده أم الكتاب، وأشهد أن لا إله إلا الله،عليه توكلت وإليه متاب، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، الذي أخذ له الميثاق على الأنبياء، وبشر عيسى بفضائله وقال : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (١). وأتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

وبعد،،،

فهذا هو تفسير سورة الرعد، راعيت فيه سهولة العبارة، وسلامة الأسلوب، والبعد عن التعقيد محاولة مني في الإسهام في خدمة كتاب الله ﷻ، حيث إن الاشتغال بكتاب الله من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله، وذلك لعلي أنال شيئاً من هذا الشرف العظيم، إذ أن شرف الخدمة يتبع شرف المخدوم.

وقد فضلت الكتابة في هذه السورة الكريمة لاشتمالها على الحديث عن أصول الإيمان الستة المبينة في حديث جبريل المشهور، وذكر الأدلة العلوية والسفلية والآيات الكونية التي تحمل في طياتها الأدلة القاطعة والبراهين الدافعة الساطعة على وجود الله وقدرته ووحدانيته، ولاشتمالها كذلك على الأخلاق الفاضلة، وجزاء من اتصف بها، وغير ذلك من الأمور العظام التي يتوصل إليها كل من قرأ هذه السورة بتدبر وإمعان، وصدق الله ﷻ إذ قال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٢).

ولقد كانت خطتي في دراسة هذه السورة على النحو التالي:

أولاً : التمهيد. وفيه :

كلمة موجزة بين يدي السورة.

---

(١) سورة فصلت : الآية (٦).
(٢) سورة ص : الآية (٢٩).

وجه تسمية السورة الكريمة بهذا الاسم.
بيان اختلاف العلماء في مكية السورة ومدنيتها.
كلمة موجزة عن عدد آيات السورة، ومناسبتها لما قبلها.
عرض إجمالي لسورة الرعد.

ثانياً: التفسير التحليلي.
وقد جاء على النحو التالي :
كتابة الآيات التي تشترك في الحديث في موضوع واحد تحت عنوان مناسب لمضمونها.
ذكر علاقة هذه الآيات بما قبلها، وذكر سبب نزول الآيات إن وجد، كما أذكر الأسباب إن تعددت.
تحليل ألفاظ الآيات وتفسيرها.
ذكر معنى العام لهذه الآيات مع بيان ما يستفاد منها
ثم ذكر بعض الطرائف الإعرابية، واللطائف البلاغية.
تخريج الأحاديث الواردة في السورة المباركة من كتب الأحاديث المختلفة مع الحكم على بعض الأحاديث التي تحتاج إلى ذلك.
ذكر بعض التراجم للأعلام الذين ذكروا.
وأخيراً: الخاتمة وتتضمن نتيجة بحثي في هذه السورة الكريمة، وثبت لأهم المراجع والمصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة.
وإني أدعو الله ﷻ أن يوفقني لخدمة كتابه، كما أسأله ﷻ أن يلهمني الرشد والقصد، وأن يجنبني الزلل والرياء في القول والعمل.
وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

التمهيد

أولاً : بين يدي السورة الكريمة :-

تبدأ سورة الرعد بالقضية الكبرى قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته مع وضوح الحق، حيث كذب المشركون بالقرآن، وأنكروا الوحدانية، فجاءت الآيات تقرر قدرته ﷻ وعجيب صنعه في السماوات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، وسائر ما خلق الله في هذا الكون البديع الصنع.

ثم تتابعت الآيات بعد ذلك في أقوال المشركين في شأن البعث والجزاء، فذكرت الآيات الساطعة على انفراده بالخلق والإيجاد والإحياء والإماتة، حيث ضرب القرآن مثلين للحق والباطل :

أحدهما : في الماء ينزل من السماء فتسيل به الأودية، ثم هو يجرف في طريقه الغثاء فيطفوا على وجهه الزبد الذي لا فائدة فيه.

والثاني : في المعادن التي تذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث الذي لا يلبث أن يذهب جفاء ويضمحل ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي، فقال ﷻ : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً ﴾ فذلك مثل الحق والباطل.

ثانياً : وجه تسمية السورة الكريمة بهذا الاسم :-

سميت "سورة الرعد " بهذا الاسم منذ العهد النبوي، ولم يعرف لها اسم سوى هذا الاسم ؛ لاشتمالها على الحديث على تلك الظاهرة الكونية العجيبة التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه، وتلك الظاهرة هي ظاهرة الرعد، قال ﷻ : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ فالماء جعله الله سبباً للحياة وأنزله بقدرته من السحاب، والسحاب جمع الله فيه الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء، وجمع النقيضين من العجائب كما قال القائل :

جمع النقيضين من أسرار قدرته *** هذا السحاب به ماء به نار فما أجمل وأعظم قدرة الله (١).

ثالثاً : بيان اختلاف العلماء في مكية السورة ومدنيتها :-

هذه السورة من السور المختلف في تنزلها، فهناك روايات صرحت بأنها مكية، وأخرى صرحت بأنها مدنية، وثالثة بأنها مكية إلا آيات منها مدنية، ورواية رابعة بأنها مدنية إلا آيات منها مكية.

قال الآلوسي: " جاء من طريق مجاهد عن ابن عباس وعلي بن أبي طلحة أنها مكية.

وروى ذلك عن سعيد بن جبير أيضاً.

قال سعيد بن منصور في سننه، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر قال : سألت ابن جبير عن قوله ﷻ : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ هل هو عبدالله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية.

وأخرجه مجاهد عن ابن الزبير وابن مردويه من طريق العوني عن ابن عباس، ومن طريق ابن جريج وعثمان بن عطاء أنها مدنية.

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أنها مدنية إلا قوله ﷻ : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَة....﴾ الآية فإنها مكية.

وروى أن من أولها إلى آخر قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ...﴾ نزل بالمدينة أما باقيها فنزل في مكة..."(٢).

هذه بعض الروايات في زمان نزول السورة، ونلاحظ فيها التعارض.

والذي يترجح لي : أن السورة مكية ؛ لأن فيها طابع القرآن المكي من حيث الموضوعات، وذلك لأن فيها الكلام عن أصول الدين والعقيدة الصحيحة، والبرهنة

(١) صفوة التفاسير (٣٨/١٣).
(٢) تفسير الآلوسي (٧٥/١٣).

على ذلك، والرد على منكري البعث وآيات الرسالة وما فيها من الوعد والوعيد، وكذلك تسلية الرسول ﷺ عما أصابه من قومه، ومما يدل على ذلك أيضاً قول السيوطي في كتابه "الإتقان" : " ونزلت بمكة سورة الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد... "(١).

رابعاً : عدد آيات السورة ومناسبتها للسورة التي قبلها : -

عدد آياتها ثلاث وأربعون آية في المصحف الكوفي، وأربع وأربعون آية في المدني، وخمس وأربعون في البصري، وسبع وأربعون في الشامي(٢).

أما مناسبتها لسابقتها وهي سورة يوسف فهي توضيح لما أجمل، ففي سورة يوسف قال الله ﷻ : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٣)، فقد وضحت سورة الرعد هذا المجمل.

وفي سورة يوسف ذكر للتوحيد حيث قال ﷻ : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤)، وفي سورة الرعد امتداد للتوحيد وذكر كثير من صفات الله ﷻ وقدرته.

(١) الإتقان في علوم القرآن (١٢/١) ط / مصطفى الحلبي.
(٢) تفسير الآلوسي (٧٦/١٣).
(٣) سورة يوسف : الآية (١٠٥).
(٤) سورة يوسف : الآية (٣٩).

عرض إجمالي لسورة الرعد

[١] افتتحت السورة الكريمة بالحروف المقطعة التي تدل على إعجاز القرآن الكريم، ثم قررت أن هذا الكتاب وحي حق من عند الله، ولا ينقص من ذلك كفر الكافرين به مهما كثروا.

[٢] ثم بينت قدرته وتصريفه في العالم العلوي والعالم السفلي: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾.

[٣] ثم بينت موقف الكفار من عقيدة البعث وإنكارهم لها بعدما رأوا هذه الآيات الساطعة الدالة على القدرة والعلم والحكمة، وردت عليهم بما يكبتهم، فقال ﷻ : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

[٤] ولما كان إنكارهم للبعث ينم عن إنكارهم لعلم الله فبينت السورة ما يدل على كمال علمه ﷻ وقدرته وحكمته، قال ﷻ: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾.... ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾.... ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾.

وقال ﷻ : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾...﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾..﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾...﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ..﴾.

وحكيم يصيب برحمته وبنقمته من يشاء، وينزل من السماء ماء بقدر ويملك العالم كله ويدبره ويرعاه : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.... ﴾ فالبصير هو الذي يدرك أن الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار.

هذه هي عقيدة البصير المستنير وما سواها من العقائد الباطلة ظلمات : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ.... ﴾.

[٥] ثم يوجه سؤالاً عن الموازنة بين الفريقين : فريق المحقين وفريق المبطلين، وعقدت مقارنة بين مصير أتباع الحق ومصير أتباع الباطل، فقال ﷻ : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾.

[٦] ثم حكت السورة الكريمة بعض المطالب المتعنتة التي طلبها المشركون من النبي ﷺ، وردت عليهم بما يمحق الباطل ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم فقال ﷻ: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ* الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ * ﴾.

[٧] ثم بينت السورة لوناً آخر من علوهم في الكفر والفساد حيث طلبوا من النبي ﷺ أن يسير لهم بالقرآن جبال مكة ليتقسموا في أرضها، ويفجر لهم فيها الأنهار والعيون لزروعوها، ويحيى لهم الموتى ليخبروهم بصدقه، فقال ﷻ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾.

ثم ختمت السورة بذكر حسن عاقبة المتقين وسوء عاقبة المكذبين،وتسلية الرسول ﷺ، وتذكيره بما لاقاه الرسل السابقون من أممهم وبما ألحقه الله بهذه الأمم الكافرة من العقاب الصارم بعد أن أمهلهم وأملى لهم : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ ﴾.... ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾.

[٨] من هذا العرض الإجمالي للسورة الكريمة نراها قد اهتمت بالحديث عن موضوعات، من أبرزها ما يأتي :

١ – إقامة الأدلة على تعظيم قدرة الله ﷻ وعلى كمال حكمته.

تارة عن طريق التأمل في الكون وما فيه من سماوات مرتفعة بغير عمد، وأرض صالحة للاستقرار عليها، وجبال لتثبيت الأرض وغير ذلك من مظاهر قدرة الله ﷻ، مثل قوله ﷻ : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وتارة عن طريق الظواهر الكونية التي يرسلها ﷻ لبعاده خوفاً وطمعاً، فقال ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ... ﴾.

وتارة عن طريق العطاء والمنع لمن يشاء من عباده، فقال ﷻ: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾.

وتارة عن طريق المصائب والكوارث التي ينزلها ﷻ بالكافرين، فقال ﷻ : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

٢ -إثبات أن القرآن الكريم من عند الله ﷻ، وأن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه، والرد على المشركين في مطالبهم المتعنتة، فقال ﷻ : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾..... .. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾.

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾.

٣-تسلية النبي ﷺ وتثبيت فؤاده لما لحقه من أذى ؛ لأن السورة على الراجح نزلت في فترة اشتد فيها إعراض المشركين عن دعوة الحق وتطاولهم على الرسولﷺ، ومطالبتهم له بالخوارق التي لا يؤيدها عقل سليم.

فساقت السورة أدلة كثيرة ومتنوعة على صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن رب العزة، ومن ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ * ﴾.

وقوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾.

وقولهﷻ :﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

هذه بعض الموضوعات التي تحدثت عنها السورة بالتفصيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القرآن الذي أنزله الله حق وبين قدرة الله ﷻ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله ﷻ : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ(١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾.

لقد ابتدئت هذه السورة الكريمة بالحروف المقطعة، وهي حروف أربعة، ولم تشاركها في هذا المطلع سورة أخرى، جمع افتتاحها هذه الحروف الأربعة، وهناك آراء متعددة في معنى هذه الحروف يمكن إجمالها في رأيين هما :

الرأي الأول : يرى العلماء أن المعنى المقصود منها غير معروف، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

وإلى هذا الرأي ذهب ابن عباس ﷺ – في إحدى رواياته – كما ذهب إليه الشعبي وسفيان الثوري وغيرهم من العلماء، فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور، فقال : إن لكل كتاب سراً، وإن سر هذا القرآن في فواتح السور.

ويروى عن ابن عباس أنه قال : عجزت العلماء عن إدراكها.

وعن علي ﷺ أنه قال : " إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي"، وفي رواية أخرى عن الشعبي أنه قال : " سر الله فلا تطلبوه ".

أما الرأي الثاني : قالوا أن المعنى المقصود منها معلوم، وأنها ليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

ولكنهم اختلفوا في المعنى المقصود على أقوال متعددة، من أهمها ما يأتي:

١) أن هذه الحروف قد جاءت فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

٢) أن هذه الحروف أسماء للسور، بدليل قول النبي ﷺ : " من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح ". وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها كسورة "ص" وسورة " يس ".

هذا القول لا يخلوا من الضعف ؛ لأن كثيراً من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح، والغرض من التسمية رفع الاشتباه.

٣) وقيل : إنها حروف مقطعة، بعضها من أسماء الله ﷻ، وبعضها من صفاته، فمثلاً " الم " أصلها : أنا الله أعلم.

٤) وقيل : إن هذه الحروف اسم الله الأعظم. إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى السيوطي في " الإتقان ".

٥) ولكن من ينظر إلى كل هذه الأقوال يجد أن أقربها للصواب أن يقال : إن السور التي وجدت بها هذه الحروف للدلالة على أن القرآن الذي تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ؛ فذلك لبلوغه في الفصاحة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل فإن تصدير السور بهذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر ؛ لأنه يطرق أسماعهم في أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة في مجاري كلامهم، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها، فيستمعوا حكماً وحججاً قد تكون سبباً في هدايتهم واستجابتهم للحق.

هذه خلاصة لآراء العلماء في الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية.

التفسير التحليلي للآيات

" تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ " : اسم إشارة، والمشار إليه الآيات، والمراد بها القرآن الكريم، ويدخل فيها آيات السورة.

قال الإمام الآلوسي : " وجوز أن يراد بالكتاب :

١) القرآن، و " تلك" إشارة إلى آيات السورة. والمعنى : آيات هذه السورة آيات القرآن الذي هو الكتاب العجيب الكامل المغني عن الوصف بذلك المعروف به من بين الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب، والظاهر أن المراد جميعه.

٢) وجوز أن يراد به المنزل حينئذ. ورجح إرادة القرآن بأنه المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت، وبه يظهر جميع ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت إليه من نعوت الكتاب بخلاف ما إذا جعل عبارة عن السورة، فإنها ليست بتلك المثابة من الشهرة في الاتصاف بذلك، المغنية من التصريح بالوصف.

وأياً ما كان فلا محذور في حمل آيات الكتاب على تلك كما لا يخفى.

وقيل : الإشارة بـ " تلك " إلى ما قص ﷻ عليه ﷺ من أنباء الرسل عليهم السلام المشار إليها في آخر السورة المتقدمة بقوله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ (١).

وجوز على هذا أن يراد بالكتاب ما يشمل التوراة والإنجيل" (٢).

---

(١) سورة يوسف : الآية (١٠٢).

(٢) تفسير الآلوسي (٣٩١/٨)، فتح القدير للشوكاني (٦٥/٣).

قال ابن عطية : " ومن قال إن حروف أوائل السور هي مثال لحروف المعجم. قال : الإشارة هنا بـ " بتلك" هي إلى حروف المعجم، ويصح على هذا أن يكون " الكتاب" يراد به القرآن، ويصح أن يراد به التوراة والإنجيل.

و " المر " – على هذا – ابتداء، " تلك " ابتداء ثان، و " آيات" خبر الثاني، والجملة خبر الأول "(١).

وقوله : " وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ".

تنويه بشأن القرآن ورد على المشركين الذين زعموا أنه أساطير الأولين.

أي : أن هذا القرآن الذي أوحى إليك من عند الله هو الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو حق صادق في إخباره، وحق عادل في أحكامه، وحق حكيم في تشريعه، وحق صحيح في كل ما يدعو إليه من عقائد وأخلاق وفضائل.

وقوله ﷻ : " مِنْ رَبِّكَ " : مزيد من التلطف في الخطاب مع الرسول ﷺ فكأنه ﷻ يقول له : إن ما ننزل عليك من قرآن هو من عند ربك الذي تعهدك بالرعاية والتربية حتى بلغت درجة الكمال.

وقال الكرماني : " وقوله الحق رفع من أربعة أوجه :

الأول : أن يقال : " تلك" مبتدأ، و " آيات الكتاب" خبر، و " الحق" خبر بعد خبر.

الثاني: " تلك" مبتدأ، " آيات الكتاب" خبره، و"الحق" خبر بعد خبر.

الثالث : " والذي أنزل إليك الكتاب من ربك" مبتدأ، " الحق" خبره.

الرابع : خبر مبتدأ محذوف أي : هو الحق" (٢).

(١)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢٩٠/٣)،ط / دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني. تح د / شمران سركال يونس (٥٥٨/١)، ط / القبلة للثقافة الإسلامية.

والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره ﷺ من الدلالة على فخامة المُنزَّل وتشريف المُنزَّل، والإيماء إلى وجه بناء الخبر ما لا يخفى(١).

وقوله : " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ".

المراد بـ " الناس" قيل : هم كفار مكة، وقيل اليهود والنصارى، والأولى أن يراد أكثرهم مطلقاً.

أي ولكن أكثر الناس لا يصدقون أن الذي أوحى إليك من ربك هو الحق بل يكفرون بذلك ويجحدونه، وفي هذا مدح لتلك القلة المؤمنة من الناس، وهم أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق منذ أن وصل إليهم، فآمنوا به ودافعوا عنه وعلى رأس هذه القلة التي آمنت بالحق منذ أن بلغها : أبو بكر الصديق ﷺ وغيره من السابقين في الإسلام ؛ ولذلك جاءت الآيات التالية تحمل الأدلة التي توجب الإيمان والتصديق بالله الخالق الذي أنزل إليك الحق، وتحمل الأدلة على صدقه وصدق الرسول الذي جاء به، وصدق البعث الذي يخبر عنه، فقال ﷻ : " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ".

والعمد : جمع عماد، أو عمود، وهو الإسطواني القائم الذي يرتكز عليه. ويقال للعمد السواري والعمود سارية(٢).

" ترونها" : تبصرونها، والضمير راجع للسماوات فلا عمد أصلاً، أو راجع للعمد، فلها عمد لكنها لا ترى ولا تبصرونها. وجملة "ترونها" في محل نصب حال من " السماوات".

والمراد بقوله " رفع" أي خلقها مرتفعة منذ البداية، وليس المراد أنه ﷻ رفعها بعد أن كانت منخفضة، وهي جملة معرفة الطرفين فتفيد الحصر والتأكيد، وتقرر الوحدانية والقدرة.

(١) روح المعاني للآلوسي(٣٩٤/٨) ط / دار الغد العربي.
(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٣٥٧/٥).

والمعنى : أن الله ﷻ هو الذي خلق هذه السماوات العلا ممسوكة عالية مرتفعة غير مرتكزة على أعمدة وأنتم ترون ذلك بأعينكم بجلاء ووضوح، ولكن الله يمسكها بقدرته : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (١).

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا ﴾ (٢).

وقوله : " ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ". استواء يليق بجلاله، ومن رحمة الله ﷻ أنه لم يكلفنا معرفة كيفية الاستواء، فنحن نؤمن بأن لله ﷻ عرشاً ﴿ وهو رب العرش العظيم﴾ وأنه استوى عليه.

وكما قال الإمام مالك ﷺ : " الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة "(٣).

وعرش الله ﷻ مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم-كما يقول الراغب-.

وقد ذكر لفظ العرش في إحدى وعشرين آية، كما ذكر الاستواء على العرش في سبع آيات من القرآن الكريم.

وكلمة " ثم" تفيد الترتيب الرتبي لا الزماني، فالسماوات والأرضون بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في فلاة(٤).

ثم بين الله بعض مظاهر نعمه على عباده فقال : " وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً ".

التسخير : التذليل والخضوع، أي : ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما. " كل" من الشمس والقمر يسير سيراً حثيثاً إلى وقت محدد معلوم لله ﷻ وهو وقت فناء الدنيا وقيام الساعة، ويجوز أن يراد من الأجل المسمى : الغاية التي ينتهي كل منهما إليها في مسيرته، فالشمس في جريها تتجه كل يوم بمقدار إلى الشمال

(١) سورة الحج : الآية (٦٥).
(٢) سورة فاطر : الآية (٤١).
(٣) الرسائل التدبرية لابن تيمية ص(٣٥).
(٤) فلاة : صحراء.

حتى تصل لغاية معلومة، ثم تتجه إلى خط الاستواء ثم تستمر متجهة حتى تصل إلى غاية معلومة في الجنوب تقطع هذه الرحلة من الشمال إلى الجنوب في نصف عام شمسي، ثم تعود متصاعدة من الجنوب إلى الشمال فتصل إلى أقصى غاية سيرها في الشمال في نصف عام، وبذلك تقطع مرحلة السير ذهاباً وإياباً كل عام.

والقمر قدر الله له منازل تبلغ ثماني وعشرين منزلة في كل شهر يمر بها، ثم يستأنف السيرة مرة ثانية في الشهر الهلالي التالي(١).

ثم ختم ﷻ الآية الكريمة بقوله : " يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ".

وتدبير الأمر يصرف أمر الملك ويقضيه ويقلبه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها بمقتضى مشيئته وإرادته وحكمه.

و" الآيات" : جمع آية، والمراد بها هنا : ما يشمل الآيات القرآنية والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته ﷻ.

وعبر بالتدبير تقريباً لإفهام الناس ؛ إذ التدبير إنما هو النظر في أدبار الأمور وعواقبها، وذلك من صفة البشر.

و " الأمر" : عام في جميع الأمور وما ينقضي في كل أوان في السماوات والأرضين، وقال مجاهد : " يدبر الأمر " معناه : يقضيه وحده(٢).

" يفصل الآيات" : أي ينزلها ويبينها مفصلة، والمراد بها : آيات الكتب المنزلة أو القرآن على ما هو المناسب لما قيل، أو المراد بها الدلائل المشار إليها فيما تقدم، وبتفصيلها، وقيل إجرائها على ما هو المناسب لما بعد، والجملتان أعني "

(١) الفلسفة القرآنية. عباس محمود العقاد ص(١٨٢) بتصرف.
(٢) المحرر الوجيز (٢٩٢/٣).

يدبر الأمر" و " يفصل الآيات" جوز أن يكونا مستأنفتين وأن يكونا حالين من ضمير " استوى".

وجوز أن يكون " يدبر" حالاً من فاعل " سخر"، و " يفصل" حالاً من فاعل " يدبر".

" والله الذي " على جميع التقادير مبتدأ وخبر، ويجوز أن يكون الاسم الجليل مبتدأ أو الموصول صفته، وجملة " يدبر" خبره، وجملة "يفصل " خبراً بعد خبر(١).

وقال ﷻ : " يدبر" و " يفصل" بصيغة المضارع، وقال قبل ذلك : "رفع السماوات" و " سخر الشمس والقمر" بصيغة الماضي ؛ لأن التدبير للأمور، والتفصيل للآيات، يتجددان بتجدد تعلق قدرته ﷻ بالمقدورات.

وأما رفع السماوات، وتسخير الشمس والقمر، فهي أمور قد تمت واستقرت دفعة واحدة.

" لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ " : لكي تجزموا وتؤمنوا إيماناً يقينياً بأنكم ستلقون ربكم وستبعثون للجزاء.

فإن هذه الآيات التي سبق ذكرها وغيرها تدل دلالة قاطعة على قدرة الله ﷻ، والقادر على الأشياء أقدر على بعث الناس للجزاء وذلك على الله يسير.

هذه الآيات المتقدمة آيات سماوية تتجلى فيها مظاهر قدرته في عالم السماوات، وهناك آيات أخرى أقرب إليكم، وهي الآيات الأرضية التي تتجلى فيما حولهم من الأرض وما على ظهرها وما يخرج من بطنها، وقد بينها الله ﷻ بقوله : " وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ".

(١) روح المعاني (٣٩٩/٨، ٤٠٠).

أي بسطها طولاً وعرضاً، وهذا البسط والمد الظاهري لا ينافي كونها كره في الواقع (١).

قال الأصم : المد هو البسط إلا ما لا يدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها.

" وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ " : أي جبالاً ثوابت. قال الزجاج : يقال قد رسا الشيء يرسو رسواً فهو راس إذا ثبت(٢).

وقال الشوكاني : " واحد " رواسي" راسية ؛ لأن الأرض ترسوا بها أي : تثبت، والإرساء : الثبوت.

قال عنترة :

فصبرت عارفة لذلك حرة ∴ ترسو إذا نفس الجبان تطلع(٣)
∴

وقال اليخني في " مختصر الطبري" : " رواسي أي جبالاً ثابتة، وهي جمع راسية، يقال : أرسيت الوتد في الأرض إذا أثبته "(٤).

وقال الإمام فخر الدين الرازي : " إن هذه الآية إنما ذكرت ليستدل بها على وجود الصانع، وهذا من وجوه :

الوجه الأول : أن طبيعة الأرض واحدة، فحصول الجبل في بعض جوانبها دون البعض لابد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم.

قالت الفلاسفة : هذه الجبال إنما تولدت لأن البحار كانت في هذا الجانب من العالم، فكانت تتولد في البحر طيناً لزجاً ثم يقوى تأثير الشمس فيها، فيقلب حجراً ثم يشاهد في كوز الفقاع ثم إن الماء كان يفور ويقل فيتحجر البقية ؛ فلهذا السبب تولدت الجبال.

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل (١٣/٢).
(٢) معاني القرآن للزجاج (١٣٧/٣) ط / عالم الكتب.
(٣) فتح القدير للشوكاني (٦٦/٣) ط / دار الوفاء.
(٤) مختصر الطبري ص(٢٤٩).

الوجه الثاني : من الاستدلال بأحوال الجبال على وجود الصانع ذي الجلال ما يحصل فيها من معادن الفلزات السبعة ومواضع الجواهر النفيسة، وقد يحصل منها معادن الزاجات والأملاح، وقد يحصل النفط والقير والكبريت، فكون الأرض واحدة في الطبيعة وكون الجبال واحداً في الطبع، وكون تأثير الشمس واحداً في الكل يدل دليلاً ظاهراً على أن الكل بتقدير قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات.

الوجه الثالث : من الاستدلال بأحوال الجبال أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض، وذلك أن الحجر جسم صلب، فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة، ثم إنها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض، فمنفعة الجبال في تولد الأنهار هو من هذا الوجه.

ولهذا السبب ففي أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الأنهار مثل ما في هذه الآية، ومثل قوله ﷻ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً ﴾ " (١).

و " أنهاراً " جمع نهر، وهو مجرى الماء الفائض، ويطلق على الماء السائل على الأرض.

" وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ".

أي ومن جميع الثمار والفواكه خلق في الأرض نوعين متقابلين من جنس واحد، فخلق الأبيض ويقابله الأسود، والصغير ويقابله الكبير، والحلو ويقابله الحامض، وهكذا الكبر والصغر، والرطوبة واليبوسة وغير ذلك. ويجوز أن يراد من الزوجين الذكر والأنثى، فقد خلق الله النباتات وغيرها كذلك، ويتجلى بصورة أجلى في

---

(١) سورة المرسلات : الآية (٢٧).
ويراجع : مفاتيح الغيب للرازي (١٨٤/١٧، ١٨٥).

النحل؛ ولذلك جاء الوصف بكلمة " اثنين" – ليكون تنصيصاً على الثنائية – ولو ترك هذا الوصف لكان الكلام محتملاً أن يكون المراد من الزوج الاثنين أي من كل ثمرة أربعة أفراد وليس هذا مراداً، بل المراد أنه خلق من كل ثمرة شيئين متقابلين، أما الأفراد فأكثر من أربعة(١).

قال صاحب " الكشاف" : أي خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت.

وقيل : أراد بالزوجين : الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأوصاف المختلفة.

وقال صاحب "الظلال" : " هذه حقيقة لم يعرفها البشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريباً، وهي أن كل الأحياء تتآلف من ذكر وأنثى حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة أو متفرقة في العود.. "(٢).

وقوله ﷻ : " اثنين" صفة لـ " زوجين" وكان الزوج يطلق على الاثنين، ويطلق على الواحد من الذكر والأنثى، وصف زوجين بـ "اثنين" ليبين أن المراد من الزوج هنا " الواحد" المقابل لصاحبه، أي من كل الثمرات جعل فيها فردين متقابلين كالذكر والأنثى في الأحياء من الحيوانات.

وقوله : " يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ " : هذا مظهر من مظاهر قدرة الله ﷻ ورحمته بعباده.

---

(١) تفسير أبي السعود (١٤٦/٣).

(٢) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب (٧٢/٥).

ولفظ " يغشى" من التغشية بمعنى التغطية والستر. أي : يجعل الليل غشاء وغطاء للنهار، فيصير أسود مظلماً بعد أن كان منيراً مضيئاً، وفي ذلك من منافع للناس ما فيه؛ إذ بذلك يجمع الناس بين العمل والراحة وبين السعي والسكون.

وفي أبي السعود : " يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ " : أي يستر النهار بالليل، والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول، فإن ضوء النهار أيضاً ساتر لظلمة الليل، ألا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاش، وعد هنا في تضعيف الآيات السفلية، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار أن ظهوره في الأرض، فإن الليل إنما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلاً. ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإنضاج على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها.

و " يغش" : مضارع، أي يجعل الله الليل يغشى النهار ويغطيه بظلامه، فالليل والنهار مفعولان لـ "يغشى"، والفاعل هو الله ﷻ وفيه استعارة تبعية حيث شبه إزالة نور النهار بواسطة ظلمة الليل بالغطاء الكثيف، واستعار " يغشى" المشير إلى تغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية الحسية للأمور المعنوية(١).

ثم ختم ﷻ الآية الكريمة بقوله: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ "

أي : إن في كل ما تقدم من مد الأرض وإيجاد الجبال والنهار والأزواج المتقابلة من أصناف الفواكه والثمار، وإلباس النهار بالليل، وكساء الليل بالنهار لآيات باهرة وبراهين ساطعة وأدلة على قدرة الله ﷻ ورحمته بعباده لقوم يحسنون التفكير ويطيلون التأمل في ملكوت السماوات والأرض.

(١) تفسير أبي السعود (١٤٦/٣).

قال " صاحب البرهان في متشابه القرآن " : " قوله ﷻ : " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " وبعدها : " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " لأن بالتفكير في الآيات يعقل ما جعلت الآيات دليل عليه، فهو الأول المؤدي إلى الثاني" (١).

وقال صاحب " درة التنزيل" : " للسائل أن يسأل عن قوله " يتفكرون" وقوله في الآية التي بعدها:"يعقلون" هل كان يصح أحدهما مكان الآخر؟

والجواب : أن يقال : إن التفكر هو المؤدي إلى معرفة الشيء والعلم بالآيات التي تدل على توحيد الله ﷻ، وهو قبل، فإذا استعمل على وجهه عقل ما جعلت هذه الأشياء أمارة له ودلالة عليه، فبدأ في الأول بما يحتاج أولاً من التفكر والتدبر المفضين بصاحبهما إلى إدراك المطلوب، وخص الآخر بما يستقر عليه آخر التفكر من إدراك سكون النفس إلى عرفان ما دلت الآيات، فكان في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر إشارة إليه "(٢).

ثم بين الله ﷻ دلائل أخرى لقدرته فقال ﷻ : " وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ".

والقطع : جمع قطعة – بكسر القاف – وهي الجزء من الشيء تشبيهاً لها بما يقتطع من الشيء.

و" متجاورات" : أي مثلاً صفات ومتقاربات، وليس هذا الوصف مقصود لذاته، بل المقصود أنها مع تجاورها وتقاربها مختلفة في أوصافها ؛ مما يشهد بقدرته ﷻ العظيمة.

---

(١) البرهان في متشابه القرن. للإمام محمود بن حمزة بن نصر الكرماني. تح / أحمد عز الدين عبدالله خلف الله ص(٢٣١)، ط / دار صادر.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز. لأبي عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب الإسكافي ص(١٣٧)، ط / دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ولهذا قال ابن كثير ما ملخصه : " " وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ": أي أراضي يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، وهذه تربتها حمراء، وتلك تربتها سوداء.... وهذه محجرة وتلك سهلة... والكل متجاورات، فهذا كله مما يدل على أن الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه(١).

وقال ﷻ : " وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ " : بإعادة اسم الأرض الظاهر، ولم يقل: وفيها قطع متجاورات كما قال : " جعل فيها زوجين اثنين" في الآية السابقة، وذلك ليكون كلاماً مستقلاً، وليتجدد الأسلوب فيزداد حلاوة وبلاغة.

وقوله ﷻ : " وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ " : أي بساتين كثيرة ذو الشجر المتكاثف، الملتف الأغصان الذي يظلل ما تحته ويستره.

" الأعناب" : جمع عنب وهو شجر الكرم.

والمراد بالزروع : أنواع الحبوب على اختلاف ألوانها وطعومها وصفاتها.

قال البيضاوي: " وتوحيد الزرع لأنه مصدر في أصله "(٢).

وقال الآلوسي: " ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لما أن في صنعة الأعناب مما يبهر العقول ما لا يخفى، ولو لم يكن فيها إلا أنها مياه متجمدة في ظروف رقيقة حتى أن منها شفافاً لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى "(٣).

والغرض من تأخير قوله ﷻ : " ونخيل"لئلا يقع بينها وبين صفتها وهي قوله ﷻ : " صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ " فاصلة، أو يطول الفصل بين المتعاطفين.

" صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ "

(١) تفسير ابن كثير (٣٥٣/٤) ط/دار الشعب.
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١١٤/٣).
(٣) روح المعاني للآلوسي(٤٢٢/٨).

الصنو : هو الشجرة التي تتفرع هي وزميلتها من أصل واحد، فالشجرتان المتحدتان في الجذر المفترقتان في الساق صنوان اثنان، والثلاثة فأكثر صنوان كثيرة.

وفي الخبر : " عم الرجل صنو أبيه "(١) ؛ لأنهما متفرعان من أصل واحد(٢).

قال صاحب " مختار الصحاح" : " إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد فكل واحدة منهن صنو، والإثنان صنوان، والجمع صِنوانٌ وأصناء "(٣).

وخص ﷻ النخيل بوصفه بصنوان ؛ لأن العبرة به أقوى ؛ إذ المشاهدة له أكثر من غيره.

ووجه زيادة " وغير صنوان" تجديد العبرة باختلاف الأحوال، واقتصر ﷻ في التفاضل على الأكل ؛ لأنه أعظم المنافع.

قال الإمام الرازي : قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم : "وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان " كلها بالرفع عطفاً على قوله : "وجنات "، وقرأ الباقون بالجر عطفاً على الأعناب.

" يسقى بماء واحد " : أي يروى ما ذكر من الجنات والزروع والنخيل بماء من نوع واحد، بل وتتغذى من تربة واحدة، وتستنشق هواء واحد، وهذا الماء لا اختلاف في ذاته سواء أكان السقى من ماء الأمطار أم من ماء الأنهار أو من ماء بحر أو ماء عين أو ماء نبع لا يسيل على وجه الأرض.

" ونفضل بعضها على بعض" : تفاوت بين بعضها وبعضها الآخر في الثمار طعماً ولوناً وريحاً وحلاوة وحموضة، وملوحة وغير ذلك.

" الأكل" – بضم الكاف وسكونها – بمعنى المأكول أو الثمر.

---

(١) صحيح البخاري (٩٨/٦).
(٢) تفسير القرطبي (٣٥١١/٤).
(٣) مختار الصحاح مادة " صنا ".

قال صاحب " البحر المحيط" : " وخص التفضيل في الأكل وإن كانت متفاضلة في غيره ؛ لأنه غالب وجوه الانتفاع من الثمرات "(١).

عن أبي هررة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله : " ونفضل بعضها على بعض في الأكل" قال : " الدخل والفارس والحلو والحامض"(٢).

وعن ابن عمر ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ : " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي. فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبدالله : ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله، قال : هي النخلة، قال : فذكرت ذلك لعمر فقال : لأن تكون قلت هي النخلة أحب إلي من كذا وكذا "(٣).

" إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ".

تذييل قصد به الحض على التعقل والتدبر. أي : إن في كل ما ذكره لعبراً وأدلة على بديع صنع الله وعظيم قدرته، فإن من عقل هذه الأحوال العجيبة وخروج الثمار المختلفة في الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك القطع المتباينة المتلاصقة مع اتحاد ما به، بل وسائر أسباب نموها، لا يتلعثم في الجزم بأن لذلك صانعاً حكيماً قديراً مدبراً لها لا يعجزه شيء، وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين.

المعنى العام :

إن الناظر في الآيات الأربع المتقدمة يجدها اهتمت ببيان العقيدة الصحيحة المتمثلة في الإيمان بالله وتوحيده، وذلك بذكر تدبير الله للكون، وإنعامه عليهم

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٣٤٩/٦، ٣٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب : التفسير –باب : ومن سورة الرعد (٢٧٥/٥) ط/دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب : التوبة –باب : مثل المؤمن مثل النخلة (٢٠٨/٨، ٢٠٩) حديث رقم (٦٩٦٠).

بالنعم الظاهرة والباطنة، ومن ذلك : بسط الأرض، وإنشاء الجبال الرواسي، والأنهار، وإخراج الثمرات المختلفة الألوان والطعوم والروائح... وغير ذلك.

ففي الآية الأولى :

بأن آيات هذه السورة الكريمة، وبأن ما أوحاه الله ﷻ إلى عبده وحبيبه محمد ﷺ هو الحق الذي لا يأتيه باطل في إخباره، ولا في قصصه وعبره، ولا في أحكامه وتشريعاته، ثم يخبر الله ﷻ بأن أكثر الناس لا يؤمنون بما جاء به القرآن الكريم المنزل على الرسول الصادق الأمين من المالك القدير ﷻ.

وفي الآية الثانية :

يوجه الله ﷻ أنظار الناس إلى العالم العلوي ليروا ما فيه من آيات ودلائل وعبر تظهر في رفع السماوات العلى بقدرته ﷻ من غير استناد إلى دعائم، ثم يخبرهم بأنه ﷻ استوى استواء يليق بجلاله على ما هو أعظم من السماوات والأراضين، وهو عرشه العظيم، وأنه ﷻ قد زلل الشمس والقمر وسيرهما بنظام دقيق يوفر للناس من المنافع والمصالح الشيء الكثير، وأن سيرهما ليس عشوائياً بل إن لهما حداً في سيرهما ينتهيان إليه، ولا يتعديانه، وإنه ﷻ جعل الليل لباساً للنهار وجعلهما متعاقبين، ثم أخبر ﷻ بأنه يقلب الأمور ويصرفها بقدرته، وأنه يوضح العبر والعظات التي يستفيد منها ويعتبر المتفكرون المتدبرون فيؤمنون بالبعث والحساب.

وفي الآية الثالثة :

وجه الله ﷻ أبصار الناس وبصائرهم إلى التأمل في العالم السفلي –الأرض– ؛ ليكشف لهم الحكم الرشيدة والدلائل الكافية على إبداع خلقه ورحمته بعباده وإنعامه عليهم إلى الأرض التي تقلهم، وإلى تمهيدها وبسطها لكي يعيشوا عليها، وما فيها من جبال ثوابت، وأنهار جارية وإلى ما أخرج من بطنها من زروع وثمار متزاوجة، وغير ذلك مما يعود على الناس بالنفع والخير.

وفي الآية الرابعة :

يعرض آياته ودلائل قدرته وإرادته وحكمته، وذلك أن في هذه الأرض التي فيها أماكن متقاربة متدانية، وبساتين كثيرة من فواكه الأعناب المتنوعة، ومن الزروع المختلفة، ومن أنواع النخيل وأصنافه فرادى وجماعات ذات أصل واحد أو أصول عديدة، كل أولئك تروى من ماء واحد وتربتها واحدة، ولكنها تأتي متفاضلة متفاوتة في ثمارها وصفاتها، مما يدل على أن الذي أنشأها إله واحد قادر حكيم منعم، وعلى أن البعث أمر يسير عليه ﷻ.

إنكار المشركين للبعث والرد عليهم

قال ﷻ: ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾.

مناسبة الآيات لما قبلها :

في الآيات السابقة ذكر الله ﷻ الأدلة القاطعة الدالة على قدرته، والتي تدعو إلى الإيمان بالبعث " لعلكم بلقاء ربكم توقنون" وفي هذه الآيات يبين الله أن الكفار مع كل ما تقدم ينكرون البعث، وأن إنكارهم هذا أمر عجيب، ثم يصفهم بما لحقهم بسبب الإنكار والكفر، ويذكرهم بالعقوبات التي لحقت السابقين بكفرهم، وبأن الله الحليم الذي لا يعجل، شديد العقاب، ثم يبين لهم أن رسوله ﷺ منذر فقط، أما الجزاء فموكول إلى الله الذي يتصف بالقدرة والحكمة البالغة.

تفسير الألفاظ وتحليلها :

قوله : " وإن تعجب" : العجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة.

وقال القرطبي : " العجب تغير النفس بما تخفى أسبابه، وذلك في حق الله ﷻ محال "(١).

أي: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث؛ لأن من شاهد ما عدد ﷻ من الآيات الدالة على قدرته، أيقن بأن من قدر على إنشائها، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسر، والله ﷻ لا يتعجب، ولا يجوز عليه التعجب ؛ لأنه – أي التعجب – تغير النفس

(١) تفسير القرطبي(٣٥١٣/٤)، الفتوحات الإلهية للجمل (٤٩١/٢).

مما تخفى أسبابه، وذلك في حقه ﷻ محال وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون.

وردت أقوال في قوله : " وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ".

الأول: قال ابن عباس ﷺ : إن تعجب من تكذيبهم إياك بعدما كانوا حكموا عليك أنك من الصادقين، فهذا عجب.

الثاني : وإن تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً بعدما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد فهذا عجب.

الثالث: قال الزمخشري : " وإن تعجب يا محمد من قولهم في إنكار البعث، فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه ؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة، ولم يعي بخلقهن كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب(١).

وجوز بعضهم أن يكون الخطاب لكل من يصلح له، أي : وإن تعجب أيها العاقل لشيء بعد أن شاهدت من مظاهر قدرة الله في هذا الكون ما شاهدت فازدد تعجباً ممن ينكر بعد كل هذا قدرته ﷻ على إحياء الموتى.

وفي قوله : " فعجب قولهم " وجهان :

أحدهما : أن " عجب" خبر مقدم، و " قولهم" مبتدأ مؤخر، ولابد من حذف صفة لتتم الفائدة، أي : فعجب أي عجب قولهم، أو فعجب غريب قولهم.

والثاني : أنه مبتدأ، وسوغ الابتداء ما ذكرته من الوصف المقدر، ولا يضر حينئذ كون خبره معرفة(٢).

والتنكير في قوله : " فعجب " للتهويل والتعظيم.

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حسان (٣٥١/٦)، وتفسير الكشاف للزمخشري (٢٧٩/٢).
(٢) حاشية الجمل على الجلالين (٤٩١/٢)، ط / عيسى الحلبي.

قولـه : " أئـذا كنـا ترابـاً " : الـهمـزة للاسـتفهام، و " إذا " ظـرف معمـول الفعـل محذوف يفسره ما بعده، أي أنبعث إذا كنا تراباً ؟

وفـي هـذا الموضـع اسـتفهامان : وهـو اسـتفهام إنكـاري يفيـد كمـال اسـتبعادهم، وموضع الإنكار هنا هو كونهم في خلق جديد، فهذا هو الذي ينكرونه، أما كونهم تراباً فليس لهم سبيل إلى إنكاره، فهو أمر مشهود محسوس، وكررت همزة الاستفهام في " أئذا" و " أئنا" لتأكيد هذا الإنكار(١).

والمعنى : أي نعاد خلقاً جديداً بعد الموت كما كنا قبله، ولم يعلموا أن القادر على البدء قادر على الإعادة، قال ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢).

" أولئك الذين كفروا بربهم" :

" أولئك " : أي أولئك المنكرون لقدرته ﷻ على البعث بعد ما تبين لهم الآيات الملجئة لهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون.

و " أولئك" : مبتدأ، و " الذين" : خبره.

" الذين كفروا بربهم " : أي أولئك المنكرون لقدرته ﷻ على البعث، هم الذين كفروا بربهم.

" وأولئك الأغلال في أعناقهم " :

وهؤلاء – أيضاً – في رقابهم الأطواق في جهنم، و"الأغلال" جمع غل وهو قيد من حديد تشد به اليد إلى العنق، وهو أشد أنواع القيود، ويساقوا بهذا إلى النار بذلة ومهانة، بسبب إنكارهم لقدرة الله على إعادتهم إلى الحياة، وبسبب جحودهم لنعم الله عليهم.

---

(١) تفسير أبي السعود (١٤٨/٣) بتصرف.

(٢) سورة الروم: الآية (٢٧).

قال ﷻ : ﴿ إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (١).

وفي الآية الكريمة تشبيه وتمثيل لحالهم في الدنيا، حيث شبه ﷻ امتناعهم عن الإيمان، وعدم التفاتهم إلى الحق بحال قوم في أعناقهم قيود لا يستطيعون معها التفاتاً أو تحركاً، كقوله :

كيف الرشاد وقد خلفت نفر ∴ لهم عن الرشد أغلال وأقياد
∴

وعلى الثاني يكون المراد وصفهم في الآخرة.

والأول أولى ؛ لأن حمل الكلام على الحقيقة واجب ما دام لا يوجد مانع يمنع منه، وهنا لا مانع بل صريح القرآن يشهد له.

وروى ذلك عن الحسن قال : إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار ؛ لأنهم أعجزوا الرب ﷻ، ولكنها جعلت في أعناقهم لكي إذا طفا بهم اللهب أرستهم في النار.

وقيل: المراد من الأغلال أعمالهم الفاسدة التي تقلدوها كالأغلال، وهو جار على احتمال أن يكون ذلك في الدنيا أو في الآخرة، والأول ناظر إلى ما قبل، والثاني إلى قوله ﷻ : " وأولئك " أي الموصوفون بما ذكر.

وقوله : " وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ".

وهؤلاء كذلك هم سكان جهنم الملازمون لها كما يتلازم الصاحبان، هم ماكثون فيها مكثاً أبدياً لا ينفكون عنها ولا يخرجون منها كما قال ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً* إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً * ﴾ (٢).

(١) سورة غافر : الآيتان (٧١، ٧٢).
(٢) سورة النساء : الآيتان (١٦٨، ١٦٩).

وكرر ﷻ اسم الإشارة للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعده من عقوبات. وجاء به للبعيد للإشارة إلى بعد منزلتهم في الجحود والضلال وتوسيط ضمير الفصل " هم" ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله ﷻ : " أولئك الذين كفروا بربهم"(١).

ثم حكى الله ﷻ لوناً آخر من جبروتهم واستعجالهم السيئة قبل الحسنة استهزءاً بالرسول ﷺ فقال ﷻ : " وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ".

المراد بالسيئة : أي العقوبات والمصائب التي تسوء من تنزل عليه.

والمراد بالحسنة : العافية والسلامة.

وقال قتادة : بالشر قبل الخير، وقيل : بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، وهذه الأقوال متقاربة، وفيها وجهان من الإعراب :

أنه متعلق بالاستعجال ظرفاً له.

أنه متعلق بمحذوف على أنه حال مقدرة من السيئة(٢).

و" المثلات " : قال الراغب : والمثلة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالاً يرتدع به غيره، وذلك كالنكال، وجمعه مثُلات، ومَثُلات، والمثلات – بإسكان الثاء – نحو عضد وعضد(٣).

أي: أن هؤلاء المشركين يطلبون أن تعجل لهم العذاب والنقمة قبل النجاة، وذلك الاستعجال استهزاء منهم بما جاء به الرسول والكتاب من البعث.

---

(١) تفسير أبي السعود (١٤٩/٣)، روح المعاني للآلوسي(٤٢٨/٨، ٤٢٩).

(٢) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. تأليف / سميح عاطف الدين (٦٨٢/٣) ط / دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري.

(٣) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص(٤٦٣).

ولما كانوا متوعدين بالعذاب إن أصروا على الكفر، وكانوا مكذبين بما أنذروا به من العذاب، سألوا واستعجلوا في الطلب أن يأتيهم العذاب، وذلك على سبيل الاستهزاء(١).

وشبيه بهذا قوله ﷻ : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٢).

وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣).

وقوله ﷻ : " وقد خلت من قبلهم المثلات" في موضع الحال لزيادة التعجب من جهلهم ؛ لأن آثار الأقوام المهلكين بسبب كفرهم ما زالت ماثلة أمام أبصارهم، وأنواع العذاب التي نزلت بهم، كالغرق والريح العقيم، والصيحة، والحاصب المدمرة، فكان من الواجب عليهم –لو كانوا يعقلون – أن يعتبروا بها.

وقوله ﷻ : " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم".

أي: إن ربك أيها الرسول الكريم لذو مغفرة للناس لا يعجل لهم العقوبة، وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه ويقلعون عن ذنوبهم. قال ﷻ:﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (٤). وجملة الناس على ظلمهم في محل نصب حال أي ظالمين والعامل فيه المغفرة بمعنى أنه العامل في صاحبها.

(١) البحر المحيط (٣٦٦/٥).
(٢) سورة العنكبوت : الآيتان (٥٣، ٥٤).
(٣) سورة الأنفال : الآية (٣٢).
(٤) سورة فاطر : الآية (٤٥).

وقدم ﷻ مغفرته على عقوبته في مقابل تعجل هؤلاء الكافرين للعذاب ليظهر الفارق الضخم بين الخير الذي يريده ﷻ لهم، وبين الشر الذي يريدونه لأنفسهم بسبب انطماس بصائرهم(١).

قال ابن كثير ما ملخصه : " قوله ﷻ : " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم". أي : إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار.

ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ؛ ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال ﷻ : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢)، وقال ﷻ : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ*وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ*﴾(٣).

وعن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية : " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم..." قال رسول الله ﷺ : " لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد"(٤).

" وإن ربك لشديد العقاب" : يعاقب من يشاء منهم حيث يشاء، فيجب أن يخشى عقابه، كما يرجى ثوابه وغفرانه : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ * ﴾.

ما ذهب إليه أهل السنة والمعتزلة في قوله ﷻ : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ :

أولاً : مذهب أهل السنة :-

(١) التفسير الوسيط للإمام الأكبر أ د / محمد سيد طنطاوي (٢٧/٧) سورة الرعد.
(٢) سورة الأنعام : الآية (١٤٧).
(٣) سورة الحجر : الآيتان (٤٩، ٥٠).
(٤) تفسير ابن كثير (٢٥٥/٤).

وهو جواز مغفرة الكبائر والصغائر بدون توبة ؛ لأنه ﷻ ذكر المغفرة مع الظلم أي الذنب ولا يكون معه إلا قبل التوبة ؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ووجه الاستدلال به : أن قوله ﷻ : " لذو مغفرة للناس على ظلمهم" أي حال اشتغالهم بالظلم، كما أنه يقال رأيت الأمير على أكله، أي : حال اشتغاله بالأكل، فهذا يقتضي كونه ﷻ غافر للناس حال اشتغالهم بالظلم. ومعلوم أن حال اشتغال الإنسان بالظلم لا يكون تائباً، فدل هذا على أنه ﷻ قد يغفر الذنب قبل الاشتغال بالتوبة.

ثم تقول : ترك العمل بهذا الدليل في حق أهل الكفر، فوجب أن يبقى معمولاً به في حق أهل الكبيرة وهو المطلوب.

أو تقول : إنه ﷻ لم يقتصر على قوله ﷻ : " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم " بل ذكر معه قوله ﷻ : " وإن ربك لشديد العقاب" فوجب أن يحمل الأول على أصحاب الكبائر وأن يحمل الثاني على أحوال الكفار.

ثانياً : مذهب المعتزلة :-

١) أن المراد مغفرة الذنوب لمرتكب الكبائر، فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد لذو مغفرة لأهل الصغائر لأجل أن عقوبتهم مكفرة، والجواب على هذا السؤال : أن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة، وإلا لوجب أن يقال : الكفار كلهم مغفور لهم لأجل أن الله ﷻ أخر عقابهم إلى الآخرة.

٢) أو مغفرتها لمن تاب.

ويتساءل الإمام الرازي قائلاً : لم لا يجوز أن يكون المراد : إن ربك لذو مغفرة إذا تابوا وأنه ﷻ إنما لا يعجل العقاب إمهالاً لهم في الإتيان بالتوبة، فإن تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب إلى الآخرة ؟ بل نقول : يجب حمل اللفظ عليه ؛ لأن القوم لما طلبوا تعجيل العقاب فالجواب المذكور فيه يجب أن يكون محمولاً على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال.

ويجيب على هذا السؤال فيقول: أنه ﷻ تمدح بهذا والتمدح إنما يحصل بالتفضل، أما بأداء الواجب فلا تمدح فيه، وعندكم يجب غفران الصغائر.

٣) أو المراد المغفرة معناها اللغوي هو الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة، كأنه قيل : إنه ﷻ لا يعجل الناس بالعقوبة وإن كانوا ظالمين، بل يستر عليهم بتأخيرها، ثم تقول : لم لا يجوز أن يكون المراد : وإن ربك لذو مغفرة أنه ﷻ إنما لا يعجل العقوبة إمهالاً لهم في الإتيان بالتوبة، فإن تابوا فهو ذو مغفرة، وإن عظم ظلمهم ولم يتوبوا فهو شديد العقاب.

ويجيب الإمام الرازي على هذا السؤال فيقول: " أنا بيناً أن ظاهر الآية يقتضي حصول المغفرة حال الظلم، وبينا أن حال حصول الظلم يمنع حصول التوبة، فسقطت هذه الأسئلة وصح ما ذكرناه "(١).

وذكر العلامة الطيبي(٢) أنه يجب تأويل الآية بأحد الأوجه الثلاثة؛ لأنها كالحث على الظلم ؛ لأنه ﷻ وعد المغفرة البالغة مع وجود الظلم.

وتعقب ذلك في الكشف فقال : فيه نظر لأن الأسلوب يدل على أنه ﷻ بليغ المغفرة لهم مع استحقاقهم لخلافها لتلبسهم بما العقاب أولى بهم عنده.

والمراد بالناس :

١ –إما المعهودون وهم المستعجلون المذكورون من قبل.

٢ – أو الجنس دلالة على كثرة الهالكين لتناولهم وأضرابهم وهذا جار على مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة، وكذا اختار الطيبي هذا التأويل وقال : هو الوجه.

قال ابن عباس : ليسمى في القرآن آية أرجى من هذه.

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩٤/١٧، ١٩٥)، روح المعاني (٤٣١/٨) بتصرف.

(٢) الحسن الطيبي (٧٤٣هـ-١٣٤٢م) الحسين بن محمد بن عبدالله الطيبي (شرف الدين)، عالم مشارك في أنواع العلوم، توفى في ١٣ شعبان من تصانيفه الكاشف عن حقائق السنن النبوية، التبيان في المعاني والبيان، مقدمة في علم الحساب، وأسماء الرجال، وفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب في التفسير. معجم المؤلفين: تأليف عمر رضا كحالة (٥٣/٤)، ط/دار إحياء التراث العربي.

والرأي الراجح : هو الثاني، وهو مراد أيضاً في " شديد العقاب" والتخصيص بالكفار غير مختار.

ويؤيد ذلك: ما أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال : لما أنزلت هذه الآية : " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب " قال رسول الله ﷺ : " لولا عقوبة الله وتجاوزه ما هنأ أحد العيش ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد"(١).

والظاهر أن التأويل بناء على مذهب الاعتزال، وأما على مذهب أهل السنة فإنه يؤول لو عم الظلم الكفر.

ثم قال: " والتأويل بالستر والإمهال أحسن وهو الرأي الثالث من مذهب المعتزلة فيكون قوله ﷻ : " وإن ربك لشديد العقاب " لتحقيق الوعيد بهم وإن كانوا تحت ستره وإمهاله ففيه إشارة إلى أن ذلك إمهال لا إهمال(٢).

ثم حكى القرآن الكريم لوناً آخر من فضائحهم وهو عدم اعتدادهم بالقرآن الكريم الذي هو أعظم المعجزات، فقال ﷻ : " ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه....".

" لولا " : هنا حرف تحضيض بمعنى هلا.

والمراد بالآية : معجزة كونية كالتي جاء بها موسى من إلقائه العصى فإذا هي حية تسعى، أو كالتي جاء بها عيسى من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله، أو كما يقترحون من جعل جبل الصفا ذهباً، وهذا ما بينه القرآن فقال

(١) أخرجه الإمام الحافظ عبدالرحمن في تفسير القرآن العظيم، تح / أسعد محمد الطيب (٢٢٢٤/٧) ط / مكتبة نزار مصطفى الباز.
(٢) روح المعاني (٤٣١/٨) بتصرف.

ﷻ : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ (١). وقوله ﷻ : ﴿ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ (٢).

وقوله ﷻ :﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾(٣). وغير ذلك من الآيات المقترحة تعنتاً منهم والله ﷻ يعلم أنهم لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية؛ لأنهم لو كانوا يريدون آية تدل على صدقه ﷺ لكان كتاب الله المعجز كافياً وافياً: ﷻ :﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (٤).

قال الزركشي في "البحر" : " لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع، وأمثال هذه المعجزات فاقترحوا عناداً آيات أخرى(٥).

وقوله ﷻ : " ويقول الذين كفروا " عطف على و " يستعجلونك" وهما من أحوال الكفار.

والتعبير بالمضارع ليفيد التجدد والاستمرار واستحضاراً للحال الماضية، وجوز أن يكون إشارة إلى أن ذلك القول ديدنهم.

فعلى هذا تكون معنى الآية : إن هؤلاء الكافرون الذين استعجلوا العذاب يقولون هلا أنزل على محمد ﷺ آية أخرى غير القرآن تدل على صدقه.

وقد وضح القرآن وظيفة النبي ﷺ فقال : " إنما أنت منذر".

أي: إن مهمتك أيها الرسول الكريم هي إنذارهم وتبليغهم ما أمرت بتبليغه وتحذرهم من سوء المصير إذا ما أصروا على كفرهم وعنادهم وليس من شأنك أن

(١) سورة الأنعام : الآية (٨).
(٢) سورة الفرقان : الآية (٢١).
(٣) سورة الإسراء : الآية (٩).
(٤) سورة الحشر : الآية (٢١).
(٥) البحر المحيط (٣٦٧/٥).

تأتي بآيات، فقد أنزل الله ما فيه من الكفاية من الآيات، ولكنهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، قال ﷻ : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

وإنما قصر ﷻ هنا وظيفة النبي على الإنذار ؛ لأنه هو المناسب لأحوال المشركين الذين أنكروا كون القرآن معجزة.

فهو قصر إضافي لا حقيقي؛إذ المراد إنما أنت بالنسبة إلى هؤلاء الذين أصروا على الكفر والتكذيب بعد إقامة البراهين المختلفة منذر فقط(٢).

" ولكل قوم هاد " أي : ولكل قوم نبي داع إلى الحق بآية فلا يجوز أن تطلب آية رسول من رسول آخر ؛ لأن ذلك تعنت ومكابرة، أو المعنى أن الهادي لكل قوم هو الله ﷻ(٣).

وقال الشيخ القاسمي : " أو المعنى : " ولكل قوم هاد " أي : قائد يهديهم إلى الرشد وهو الكتاب المنزل عليهم، الداعي بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم.

يعني : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء إلى الهدى، وتبصير سبله، والإنذار من الاسترسال في مساقط الردى، وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى، وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله وحده... "(٤).

وقد ذكر المفسرون من أهل الظاهر أقوالاً في معنى المنذر والهادي:

الأول : المنذر محمد ﷺ، والهادي هو الله ﷻ، روى ذلك عن ابن عباس ﷺ وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك، قاله ابن كثير(٥).

---

(١) سورة الأعراف : الآية (٢٠٣).
(٢) سورة الرعد دراسة أدبية ولغوية وفكرية ص(٧٩).
(٣) الكشاف (٣٥٠/٢).
(٤) تفسير القاسمي (٣٦٤٨/٩).
(٥) تفسير ابن كثير (٥٠٢/٢)، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ص(٣٦٤).

الثاني : المنذر النبي ﷺ، والهادي علي. قال ابن عباس ﷺ : وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال : " أنا المنذر" ثم أومأ إلى منكب علي ﷺ وقال : " أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي "(١).

وأخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه، وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله : " إنما أنت منذر ولكل قوم هاد " قال رسول الله ﷺ : " أنا المنذر" وأنا الهادي، وفي لفظ : " والهادي رجل من بني هاشم – يعني نفسه – " (٢).

قال الآلوسي : " واستدل بذلك الشيعة على خلافة علي كرم الله وجهه بعد رسول الله ﷺ بلا فصل.

وأجيب: بأنا لا نسلم صحة الخبر وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار عند أهل الأثر، فهو كثيراً ما يصحح الضعيف، وليس في الآية دلالة على ما تضمنه بوجه من الوجوه على أن قصارى ما فيه كونه كرم الله وجهه به يهتدى المهتدون بعد رسول الله ﷺ وذلك لا يستدعى إلا إثبات مرتبة الإرشاد وهو أمر والخلافة التي نقول بها أمر لا تلازم بينهما عندنا.

وقال بعضهم: إن صح الخبر يلزم القول بصحة خلافة الثلاثة ﷺ حيث دل على أنه كرم الله وجهه على الحق يأتي ويذر وأنه الذي يهتدي به وهو قد بايع أولئك الخلفاء طوعاً ومدحهم وأثنى عليهم خيراً ولم يطعن في خلافتهم فينبغي الاقتداء به والجري على سنته في ذلك، ودون إثبات خلاف ما أظهر خرط القتاد "(٣).

وقال أبو حيان: " وإن صح ما روى عن ابن عباس مما ذكرناه في صدر هذه الآية، فإنما جعل الرسول ﷺ علي بن أبي طالب مثالاً من علماء الأمة وهداتها إلى الدين، فكأنه قال : أنت يا علي هذا وصفك، ليدخل في ذلك أبو بكر وعمر

(١) الحديث ذكره الطبري (٣٧٧/٧).
(٢) الدر المنثور للسيوطي (٤٥/٤) ط/دار المعرفة.
(٣) روح المعاني للآلوسي (٤٣٤/٨).

وعثمان ﷺ وسائر علماء الصحابة، ثم كذلك علماء كل عصر، فيكون المعنى على هذا : إنما أنت يا محمد منذر ولكل قوم في القديم والحديث دعاة هداة إلى الخير "(١).

قال الآلوسي: " وظاهره أنه لم يحمل تقديم المعمول في خبر ابن عباس ﷺ على الحصر الحقيقي، وحينئذ لا مانع من القول بكثرة من يهتدى به، ويؤيد عدم الحصر ما جاء عندنا من قوله ﷺ : " اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر"(٢)، وأخبار أخر متضمنة لإثبات من يهتدى به غير علي كرم الله وجهه، وأنا أظنك لا تلتفت إلى التأويل ولا تعبأ بما قيل، ونكتفي بمنع صحة الخبر، وتقول : ليس في الآية مما يدل عليه عين ولا أثر "(٣).

الثالث : المنذر هو النبي ﷺ والهادي أيضاً هو النبي ﷺ.

أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: " ولكل قوم هاد " قال : لكل قوم نبي. الهادي : النبي ﷺ، و " المنذر" أيضاً النبي ﷺ، وقرأ : " وإن من أمة إلا خلا فيها نذير"(٤). وقال : " نذير من النذر الأولى"(٥) قال : نبي من الأنبياء "(٦). ووجه ذلك: بأن " هاد " عطف على " منذر" و " لكل قوم " متعلق به قدم عليه للفاصلة، وفي ذلك دليل على عموم رسالته ﷺ وشمول دعوته، وفيه الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجار والمجرور، والنحويون في جوازه مختلفون، وقد يجعل " هاد" خبر مبتدأ مقدر، أي: وهو هاد، أو : وأنت هاد، وعلى الأول فيه التفات.

الرابع : وقال آخرون : بل عنى به ولكل قوم قائد.

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٣٥٥/٦).
(٢) الحديث في الجامع الصغير للسيوطي(٨٢/١).
(٣) روح المعاني (٤٣٤/٨، ٤٣٥).
(٤) سورة فاطر : الآية (٢٤).
(٥) سورة النجم: الآية (٥٦).
(٦) تفسير الطبري (٣٧٧/٧).

أخرج ابن جرير عن أبي العالية:"إنما أنت منذر ولكل قوم هاد" قال: " الهادي" القائد، والقائد : الإمام، والإمام العمل كما نقله ابن كثير(١).

وقال صاحب " دفع إيهام الاضطراب " : " وعلى هذا القول فالمعنى : ولكل قوم عمل يهديهم إلى ما هم صائرون إليه من خير وشر، ويدل لمعنى هذا الوجه قوله ﷻ : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ (٢) على قراءة من قرأها بتاءين مثناتين بمعنى: تتبع كل نفس ما أسلفت من خير وشر(٣).

الخامس: أن معنى قوله : " ولكل قوم هاد " أي : داع يدعوهم ويرشدهم إما إلى خير كالأنبياء، وإما إلى شر كالشياطين، أي : وأنت يا رسول الله منذر هاد إلى كل خير، وهذا القول مروى عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة، وقد جاء في القرآن استعمال الهدى في الإرشاد إلى الشر أيضاً، كقوله ﷻ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾(٤)، وقوله ﷻ : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (٥)، وقوله ﷻ: ﴿ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ * ﴾ (٦)، كما جاء في القرآن الكريم أيضاً إطلاق الإمام الداعي إلى الشر في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ (٧).

عن ابن عباس : قوله :" ولكل قوم هاد" قال : داع(٨).

بعد كل هذه الآراء أستطيع أن أقول: إن الآية الكريمة تُحدد وظيفة الرسول ﷺ وأنه ليس عليه إلا البلاغ، وأما الهداية فمصيرها إلى الله ﷻ قال ﷻ : ﴿ لَيْسَ

(١) المرجع السابق، تفسير ابن كثير (٥٠٢/٢).
(٢) سورة يونس : الآية (٣٠).
(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب. للشيخ / محمد الأمين الشنقيطي ص(١٦٥).
(٤) سورة الحج : الآية (٤).
(٥) سورة الصافات : الآية (٥٣).
(٦) سورة النساء : الآيتان (١٦٨، ١٦٩).
(٧) سورة القصص : الآية (٤١)، ويراجع : دفع إيهام الاضطراب ص(١٦٤).
(٨) تفسير الطبري (٣٧٧/٧).

عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ (١).

القراءات القرآنية في الآيات الثلاث

قوله: " وإن تعجب فعجب قولهم " : أدغم باء " تعجب " في فاء "فعجب" أبو عمرو، الكسائي، هشام.

وقرأ: " أئذا كنا تراباً أئنا " بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني نافع، الكسائي، يعقوب، وكل على أصله.

فقالوا بالتسهيل والمد، وورش ورويس بالتسهيل والقصر، والكسائي، وروح بالتحقيق والقصر. وقرأ ابن عامر أبو جعفر بالإخبار في الأول. والاستفهام في الثاني، وكل على أصله أيضاً، فابن عامر بالتحقيق بلا فصل بالألف، غير أن أكثر الطرق عن هشام على الفصل، وأما أبو جعفر فبالتسهيل والمد، والباقون بالاستفهام فيهما.

فابن كثير بالتسهيل بلا فصل، وأبو عمرو بالتسهيل والفصل، وأما عاصم وحمزة وخلف فبالتحقيق والقصر(٢).

وقوله ﷻ : " من قبلهم المثلات ".

قرأ أبو عمرو، ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلاً في قوله ﷻ: "من قبلهِمُ المثلات "، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الهاء والميم "المَثَلات " بفتح الميم والثاء، وذلك جمع قلة أي : الأخذه القذة بالعقوبة، قرأ يحيى بن وثاب بضم الميم وسكون الثاء " المُثْلات"، وقرأ طلحة بن مصرف " المَثْلات" بفتح الميم وسكون الثاء، وقرا الجمهور بفتح الميم وضم الثاء " المَثُلات "(٣).

وقوله ﷻ : " هاد".

---

(١) سورة البقرة : الآية (٢٧٢).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (١٦٠/٢، ١٦١).

(٣) المصدر السابق(١٦١/٢)،تفسير ابن عطية(٢٩٦/٣)،البحر المحيط(٣٥٣/٦).

قرأ ابن كثير بإثبات الياء في حالة الوقف في قوله " هاد"(١) في الموضعين من سورة الرعد. و " وال"(٢) و " واق "(٣) كلاهما على الأصل هذا هو الصحيح عنه، وقرأ باقي السبعة بحذفها، وانفرد الهذلي في الكامل عن ابن شنبوذ عن قنبل بالوقف بالياء على سائر الباب، وانفرد ابن مهران عن يعقوب بإثبات الياء في الجميع وقفاً ولا أعلمه رواه غيره(٤)، والقراءتان في " هاد" بإثبات الياء وحذفها في الوقف سبعيتان.

المعنى العام :

إن المتدبر لهذه الآيات يجدها قد تحدثت عن إنكار المشركين للبعث واستهزائهم برسول الله ﷺ مع أن حديث القرآن عن البعث حديث واضح، والبعث من الأمور السمعية التي أخبر بها الرسول الكريم بقول الله ﷻ لرسوله : إن يكن منك تعجب لحالة هؤلاء الكفار الذين لم تؤثر فيهم لآياتنا وأدلتنا ولم تحملهم على الإيمان والتصديق بالله وكتابه ورسوله، فهناك ما يبعث في النفس عجباً أعجب، وذلك هو استهزاؤهم بأمر البعث، وقولهم على سبيل الإنكار والجحود : أبعد أن نموت ونبلى نبعث ونخلق خلقاً جديداً.

وفي الآية الثانية :

يبين الله ﷻ أن هؤلاء الكفار لسفههم وإمعاناً منهم في الكفر يستعجلون الرسول أن يأتيهم بالعقوبة والعذاب التي يتوعدهم بها وينذرهم بحلولها، ولو كان هؤلاء عقلاء لاتعظوا بمن قبلهم من الأمم الكافرة التي حل بها العذاب، وجلعهم ﷻ مثلاً ونكالاً وعبراً للمعتبرين.

(١) الآيتان (٧، ٣٣) من سورة الرعد.
(٢) الآية (١١) من سورة الرعد.
(٣) الآيتان (٣٤، ٣٧) من سورة الرعد.
(٤) النشر في القراءات العشر لابن الجوزي (١٣٧/٢).

ثم وضح الله ﷻ بأنه عظيم المغفرة لمن يتوب ويرجع إليه، وإن من سعة رحمته لا يعجل العقوبة للعاص لعله ينيب إلى ربه، وهو أيضاً شديد العقوبة وشديد الانتقام، فالعاقل من يطمع في ثوابه ويخشى عقابه : ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) و : ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢).

أما في الآية الثالثة :

فيذكر الله ﷻ ما قاله الكفار للرسول ﷺ فيقولون : ألا تنزل على محمد آية وحجة وبرهان من عند الله ؟ وقد مضى من هذه السورة وغيرها من آيات الله البرهان والحجة التي قامت قاطعة بصدق الرسول ﷺ فكان سؤالهم هذا تعنت ؛ ولذا قال له : ما أنت إلا نذير، تبلغ ما أمرناك به، وتدعو إلى الإيمان وترشد كل من كان حياً. أما الآيات فمجيئها موكول إلى الله ﷻ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ (٣) فلا عليك أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾ (٤).

ويتساءل الإمام الرازي فيقول : " فإن قيل : فما السبب في أن الله ﷻ منعهم وما أعطاهم ؟

قلنا: إنه لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقي تحكماً، وظهور القرآن معجزة، فما كان مع ذلك حاجة إلى سائر المعجزات، وأيضاً فلعله ﷻ علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتمسة، وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال؛ فلهذا السبب ما أعطاهم الله ﷻ مطلبهم، وقد بين الله ﷻ ذلك بقوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ

(١) سورة الأعراف : الآية (٩٩).
(٢) سورة يوسف : الآية (٨٧).
(٣) سورة يونس : الآية (٩٩).
(٤) سورة الشورى : الآية (٤٨).

أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (١)، بين أنه لم يعطهم مطلوبهم ؛ لعلمه ﷻ أنهم لا ينتفعون به.

وأيضاً ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له، وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر، فطلب منه معجزة أخرى، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء – عليهم السلام – وأنه باطل "(٢).

(١) سورة الأنفال : الآية (٢٣).
(٢) مفاتيح الغيب (١٩٦/١٧، ١٩٧).

علم الله ﷻ وقدرته

*****

قال الله ﷻ: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)﴾.

علاقة الآيات بما قبلها:

تحدثت الآيات السابقة عن استبعاد الكفار للبعث، ففي هذه الآيات يبين الله ﷻ علمه المحيط بكل شيء، وقيل: إنهم لما استعجلوا بالسيئة قبل الحسنة نبه ﷻ على إحاطة علمه بجميع الأشياء ليفيد أنه جلت حكمته إنما ينزل العذاب على حسب ما يرى من المصلحة والحكمة.

تفسير الألفاظ وتحليلها:

" الله يعلم ما تحمل كل أنثى": هذا كلام مستأنف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته ﷻ.

أي: الله وحده يعلم ما تحمله كل أنثى وما يكون في داخل الأرحام من نوع المولود أذكر هذا الحمل أم أنثى ؟ أتام أم ناقص" أواحد أم متعدد ؟ وغير ذلك.

وفي " ما تحمل " ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون " ما " موصولة والعائد محذوف.

الثاني: أن تكون " ما " مصدرية فلا عائد.

الثالث: أن تكون استفهامية.

وجملة " الله يعلم " تأكيد بالجملة الإسمية ؛ وذلك لأن العلم قد أسند إلى الله في هذه الجملة مرتين:

الأولى: إذا جعلت جملة يعلم خبراً عن الله.

الثاني: إذا كان فاعل " يعلم" ضميراً مستتراً يعود على لفظ الجلالة.

وقوله ﷻ: " وما تغيض الأرحام وما تزداد ".

" تغيض": من الغيض بمعنى النقص، يقال: غاض الماء إذا نقص.

قال ابن كثير: " وقوله: "وما تغيض الأرحام وما تزداد" قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن، حدثنا مالك، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: " مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله".

وقال العوفي عن ابن عباس: " وما تغيض الأرحام" يعني السقط، "وما تزداد " يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الفيض والزيادة التي ذكر الله ﷻ، وكل ذلك بعلمه ﷻ "(١).

وقال الراغب: غاض الشيء وغاضه غيره نحو نقص ونقصه غيره قال: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ (٢)و " وما تغيض الأرحام" أي: تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض، والغيضة المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه "(٣).

وقوله ﷻ:"وما تزداد": الزيادة أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر. يقال: زدته فازداد، وكقوله: ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ (٤) نحو ازددت فضلاً، أي: ازداد فضلي(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير، المجلد الرابع ص(٣٥٧) ط/دار الشعب.

(٢) سورة هود: الآية (٤٤).

(٣) المفردات في غريب القرآن ص(٣٦٨).

(٤) سورة يوسف: الآية (٦٥).

(٥) المفردات للأصفهاني ص(٢١٦).

وبين قوله: " تغيض... تزداد " طباق وهما فعلان.

وأقول: الأحسن أن يظل العموم على عمومه ؛ ليشمل كل نقص وزيادة تحصل في الأرحام وما فيها.

" وكل شيء عنده بمقدار": أي وكل شيء عنده بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه، ومن ذلك ما ذكر من حمل كل أنثى ومن زيادة الأرحام ونقصها، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (١) وكما قال ﷻ: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٢)، فهو ﷻ يعلم كيفية كل شيء وسائر أحواله.

و " عند": ظرف متعلق بمحذوف وقع صفة لشيء أو لكل.

" بمقدار" خبر " كل" وجوز أن يكون الظرف متعلق بمحذوف وقع حالاً من مقدار.

" عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ":

" الغيب ": مصدار غاب يغيب، وكثيراً ما يستعمل بمعنى الغائب، وهو: ما لا تدركه الحواس ولا يُعلم ببداهة العقل.

" الشهادة": مصدر شهد يشهد، وهي هنا بمعنى الأشياء المشهودة.

" المتعال ": المستعلى على كل شيء في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ﷻ.

أي: أنه ﷻ وحده الذي يعلم أحوال الأشياء الغائبة من الحواس، كما يعلم أحوال المشاهدة منها، وهو العظيم الشأن المستعلى على كل شيء.

و " عالم " مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون مبتدأ.

" الكبير ": خبره، والأول أصح.

---

(١) سورة القمر: الآية (٤٩).

(٢) سورة الحجر: الآية (٢١).

فعلى الوجه الأول: المراد تنزيهه ﷻ في ذاته وصفاته عن مداناة شيء منه.
وعلى الوجه الثاني: فالمراد تنزيهه ﷻ عما وصفه الكفرة به.
وقوله ﷻ: " سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ".
و " سواء": اسم مصدر بمعنى الاستواء، والمراد به اسم الفاعل، أي: مستو.
قال الجمل: "وفيه وجهان، أحدهما: أنه خبر مقدم، ومن أسر ومن جهر هو المبتدأ، وإنما لم يثن الخبر ؛ لأنه في الأصل مصدر وهو هنا بمعنى مستو.
الثاني: أنه مبتدأ وجاز الابتداء به لوصفه بقوله: " منكم"(١).
و " من" مبتدأ مؤخر، والتقدير: من أسر القول ومن جهر به سواء.

وبين قوله ﷻ: " أسر" " وجهر" طباق، وقدم ﷻ الإسراء والاستخفاء ؛ إظهار لحال علمه ﷻ فكأنه في التعليق بالخفيان أقدم منه بالظواهر، وإلا فنسبته إلى الكل سواء "(٢).
" ومن هو مستخف": مبالغ في الاختفاء كأنه مختف بالليل وطالب للزيادة.
" "وسارب بالنهار ": ففيها إيجاز بالحذف ؛ إذ التقدير ومن هو سارب بالنهار.

ويقول ابن كثير: " وقوله: " ومن هو مستخف بالليل " أي مختف في مقر بيته في ظلام الليل، و " وسارب بالنهار" أي ظاهر ماشي في بياض النهار وضيائه "(٣).
وذكر ﷻ الاستخفاء مع الليل لكونه أشد خفاء، وذكر السروب مع النهار لكونه أشد ظهوراً (١).

(١) حاشية الجمل على الجلالين (٤٩٤/٢).
(٢) تفسير أبي السعود (١٥١/٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٥٠٣/٣).

القراءات القرآنية:

اختلفت القراءة في الوقف على "المتعال" فأثبت ابن كثير ويعقوب الياء في الوصل والوقف، ولم يثبتها الباقون في وصل ولا وقف، وإثباتها هو الوجه والباب، وما ورد عن قنبل من حذفها في الحالين أو في الوقف فغير مأخوذ به(٢).

المعنى العام:

يوضح لنا الله ﷻ في الآيات السابقة عن تمام علمه فهو ﷻ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو يعلم ما تحمله الحوامل سواء كانت تحمل ذكراً أو أنثى، شقياً أو سعيداً، طويلاً أو قصيراً، حسناً أم قبيحاً.

فالله ﷻ الذي يعلم المراحل التي يمر بها الجنين بكل دقة، فقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٣).

روى البخاري بسنده عن عبدالله بن مسعود ﷺ: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: " إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً وأربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربعة كلمات فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار

---

(١) التفسير الوسيط للإمام الأكبر أ د / محمد سيد طنطاوي، الجزء السابع، ص(٢٢)، المجلد الثالث عشر.

(٢) النشر في القراءات العشر لابن الجزري(١٣٧/٢)، إتحاف فضلاء البشر (١٦١/٢).

(٣) سورة المؤمنون: الآيات (١٢- ١٤).

حتى ما يكون بينها وبينه ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"(١).

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب:التوحيد– باب: قوله ﷻ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات:١٧١) (٤٤٩/١٣) حديث رقم (٧٤٥٤).

رعاية الله ﷻ لعباده

*****

قال ﷻ: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) ﴾.

علاقة الآية بما قبلها:

وضحت الآية السابقة أن الله يعلم من أسر القول ومن جهر به، ومن استخفى بالليل وسرب بالنهار، أتبع ذلك في هذه الآية بأن للإنسان جماعات من الملائكة تحفظه من بين يديه ومن خلفه، وهذا كله بأمر الله ﷻ.

تفسير الألفاظ وتحليلها:

" له معقبات ": يحتمل أن يكون الضمير عائداً على الله، فلله ملائكة معقبات، والضمائر بعد ذلك لمن أسر القول ومن جهر به، ويحتمل أن يكون ضمير له عائد على من أسر القول ومن جهر به كبقية الضمائر(١).

" معقبات": صفة لموصوف محذوف، أي: ملائكة معقبات.

قال الزمخشري: " والأصل معتقبات فأدغمت التاء في القاف، كقوله ﷻ: "وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ "(٢) بمعنى المعتذرون "(٣).

قال الشوكاني: " والمعقبات المتساويات التي يخلف كل واحد منها صاحبه وتكون بدلاً منه. وهم الحفظة من الملائكة في قول عامة المفسرين.

---

(١) البحر المحيط(٣٧١/٥)، تفسير القرطبي (٣٥٢٠/٤) بتصرف.

(٢) سورة التوبة: الآية (٩٠).

(٣) الكشاف للزمخشري (٢٨١/٢).

قال الزجاج: المعقبات ملائكة يأتي بعضهم يعقب بعض، وإنما قال " معقبات" مع كون الملائكة ذكوراً ؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة، ثم جمع معقبة معقبات.

قال الجوهري: والتعقب العود بعد البدء، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾(١) " (٢).

يقال: عقب الفرس في عدوه، أي: جرى بعد جريه، وعقبه تعقيباً أي: جاء عقبه.

قوله: " من بين يديه ومن خلفه": أي: من أمامه ومن ورائه، وهذه الجملة لها أربعة أوجه من الإعراب:

١ –إما أن تكون متعلقة بمحذوف وقع صفة لـ " معقبات".

٢ –أو حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً له، فالمعنى: أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه.

٣ –أو هو متعلق بـ " معقبات" و " من " لابتداء الغاية، فالمعنى: أن المعقبات تحفظ ما قدم وأخر من الأعمال، أي: تحفظ جميع أعماله.

٤ –وجوز أن يكون متعلقاً بقوله ﷻ: " يحفظونه" والجملة صفة "معقبات" أو حال من الضمير في الظرف.

وإن جعل " من بين يديه " متعلقاً بـ " يحفظونه" يكون هناك صفتان الجملة والجار والمجرور، وتقدم الوصف بالجملة على الوصف به سائغ شائع في الفصيح، وكأن الوصف بالجملة الدالة على الديمومة في الحفظ لكونه آكد قدم على الوصف الآخر.

---

(١) سورة النمل: الآية (١٠).

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني (٦٩/٣).

" من أمر الله ": متعلق بما عنده. و " من" بمعنى باء السببية، ويجوز أن تكون بمعنى " عن" أي أنهم يحفظونه بناء على أمر الله لهم بذلك، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف وصفه " معقبات ".

والمعنى: أي لكل واحد ممن يسرون القول أو يجهرون به ملائكة يتعاقبون عليه بالليل ويحيطون به من جميع جوانبه لحفظه ورعايته، وكل هذا بسبب أمر الله ﷻ لهم بذلك.

ولكن هناك سؤال: ما الفائدة في جعل هؤلاء الملائكة موكلون علينا؟

الجواب: أن هذا الكلام غير مستبعد ؛ وذلك لأن المنجمين اتفقوا على أن التدبير في كل يوم لكوكب على حدة، وكذا القول في كل ليلة، ولا شك أن تلك الكواكب لها أرواح عندهم، فتلك التدبيرات المختلفة في الحقيقة لتلك الأرواح، وكذا القول في تدبير القمر والهيلاج الكد خدا على ما يقول المترجمون، وأما أصحاب الطلمسات فهذا الكلام مشهور في ألسنتهم ؛ ولذلك تراهم يقولون: أخبرني الطباعي التام، ومرادهم بالطباعي التام: أن لكل إنسان روحاً فلكية يتولى إصلاح مهماته ودفع بلياته وآفاته، وإذا كان هذا متفقاً عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الأحكام فكيف يستبعدون مجيئه في الشرع.

وتمام الحقيقة فيه: أن الأرواح البشرية مختلفة في جواهرها وطبائعها، فبعضها خيرة وبعضها شريرة، وبعضها معزة وبعضها مذلة، وبعضها قوية القهر والسلطان وبعضها ضعيفة سخيفة، وكما أن الأمر في الأرواح البشرية كذلك، فكذا القول في الأرواح الفلكية، ولاشك أن الأرواح الفلكية في كل باب أقوى من الأرواح البشرية، وكل طائفة من الأرواح البشرية تكون متشاركة في طبيعة خاصة وصفة مخصوصة، كما أنها تكون في تربية روح من الأرواح الفلكية مشاكلة لها في الطبيعة والخاصية، وتكون تلك الأرواح البشرية كأنها أولاد لذلك

الروح الفلكي، ومتى كان الأمر كذلك كان ذلك الروح الفلكي معيناً لها على مهماتها ومرشداً إلى مصالحها وعاصماً لها من صنوف الآفات، فهذا كلام ذكره محققوا الفلاسفة، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن الذي وردت به الشريعة أمر مقبول عند الكل فكيف يمكن استنكاره من الشريعة (١).

" إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ".

هذه سنة من سنن الله التي لا تتغير، وهي أنه ﷻ لا يغير ما بقوم من نعمة وعاقبة وخير بضده حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة إلى معصية ومن جميل إلى قبح.

وليس المراد أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة إلا إذا تقدم إليه بذنب بلى قد تنزل العقوبة أو المصائب بسبب ذنوب الغير كما في الحديث أنه ﷺ سئل: " أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم إذا كثر الخبث"(٢).

ولعلك تلمح هذا من التعبير بلفظ " بقوم" ولم يقل بأحد.

يقول الشيخ / سيد قطب: " فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم، فيرتب عليه الله تصرفه بهم، فإنه لا يغير نعمة أو بؤس، ولا يغير عزاً أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة... إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيئ لاحقاً له في الزمان بالقياس إليهم، وإنما لحقيقة تلقى على البشر تبعة ثقيلة.

(١) الطبري (٣٨٦/٧).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب: الفتن –باب: قول النبي ﷺ: "ويل للعرب من شر قد اقترب " (١٤/١٣) ح (٧٠٥٩).

فد قضت مشيئة الله وجرت سنته أن تترتب مشيئة الله على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم، والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل، وهو يحمل كذلك – إلى جانب التبعة – دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله ﷻ فيه "(١).

وكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد.

قال القاضي: " والظاهر لا يحتمل إلا هذا المعنى ؛ لأنه لا شيء مما يفعله ﷻ سوى العقاب إلا وقد يبتدئ به في الدنيا من دون تغيير يصدر من العبد فيما تقدم ؛ لأنه ﷻ ابتدأ بالنعم ديناً ودنيا، ويفضل في ذلك من شاء على ما يشاء، فالمراد مما ذكره الله ﷻ التغيير بالهلاك والعقاب "(٢).

قال الآلوسي: " واستشكل ظاهر الآية حيث أفادت أنه لا يقع تغيير النعم بقوم حتى يقع تغيير منهم بالمعاصي مع أن ذلك خلاف ما قررته الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة، وفيه قوله ﷻ: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٣). وقوله ﷺ: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه"(٤). في أشياء كثيرة، وأيضاً قد ينزل الله ﷻ بالعبد مصائب يريد بها أجره، وقد يستدرج المذنب بترك ذلك "(٥).

(١) في ظلال القرآن (٢٠٤٩/٤، ٢٠٥٠).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠٩/١٧).
(٣) سورة الأنفال: الآية (٢٥).
(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن – باب: ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٦٩/٤) برقم (٢١٧٥).
(٥) روح المعاني (٤٤٩/٨).

وأولها ابن عطية لذلك بـ: " أن المراد حتى يقع تغيير ما منهم أو ممن هو منهم، كما غير ﷻ بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم، والحق أن المراد: أن ذلك عادة الله ﷻ الجارية في الأكثر لا أنه ﷻ لا يصيب قوماً إلا بتقدم ذنب منهم فلا إشكال "(١).

" وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ":

أي: إذا أراد الله الفعال لما يريد ﷻ بقوم سوءاً من إهلاكهم وعذابهم بسبب إيثارهم الغنى على الرشد، وقد يكون بسبب فعل جماعة منهم وعدم نهيهم فلا راد لقضائه ولا دافع لعذابه.

" وما لهم من دونه من وال ":

أي: وليس لمن أرادهم الله بسوء أي ناصر ينصرهم منه ﷻ، ويتولى أمورهم ويرفع عنهم عقابه، ويلتجئون إليه عند الشدائد.

و "من " مزيدة للاستغراق، وفيه دليل على أن وقوع خلاف مراد الله ﷻ محال(٢).

وعليه يمكن أن يفهم حرف الجر " من" في قوله: " من وال " بأنه يفيد التبعيض، وأن نفي البعض أبلغ من نفي الكل(٣).

فالآية الكريمة فيها تحذير شديد لمن أصر على الشرك والمعاصي، فالله ﷻ لا يعصم الناس من عذابه عاصم.

(١) المرجع السابق، تفسير ابن عطية (٣٠٢/٣، ٣٠٣).
(٢) التفسير المنير (١١٩/١٣).
(٣) تفسير القرطبي (٣٥٢٤/٤).

قال الإمام ابن كثير: " قال ابن أبي حاتم: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: أن قل لقومك إنه ليس من أهل القرية، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ويتحولون منها إلى معصية الله، إلا تحول الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون.

ثم قال: إن مصداق ذلك في كتاب الله: " إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ "(١).

القراءات القرآنية:

قرأ عبيدالله بن زياد: " له معقبات من بين يديه " قال أبو الفتح: ينبغي أن يكون هذا تكسير معقب أو مقية، إلا أنه حذف إحدى القافين عوض منهما الياء فقال: " معاقيب " كما تقول في تكسير مقدم: مقاديم، ويجوز ألا تعوض فتقول: معاقب، كمقادم.

وأما قوله ﷻ: " من بين يديه ومن خلفه ": قرأها أبي بن كعب "من بين يديه ورقيب من خلفه"، وقرأ ابن عباس: " ورقباء من خلفه"، وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ: " معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله ".

وقوله ﷻ: " يحفظونه من أمر الله ": قرأها علي بن أبي طالب وابن عباس ﷺ وعكرمة وزيد بن علي وجعفر بن محمد: " يحفظونه بأمر الله ". قال أبو الفتح: المفعول هنا محذوف، أي يحفظونه مما يحاذره بأمر الله "(٢).

المعنى العام:

الآية الكريمة تبين أن الله ﷻ جعل له ملائكة يحفظون عليه أعماله في الليل والنهار. وهؤلاء الملائكة وصفهم الله بأنهم: ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ

(١) تفسير ابن كثير ( ).
(٢) المحتسب لابن جني (٣٥٥/١)، تفسير ابن عطية (٣٠٢/٣).

مَا يُؤْمَرُون ﴾ (١)، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ تَفْعَلُونَ * ﴾ (٢).

فمن الواجب على الإنسان أن يواظب على طاعات الله ﷻ ؛ حتى تكتب صحيفة أعماله خالية مما يسوءه ؛ لأن هؤلاء الملائكة يجتمعون عند صلاة العصر وصلاة الصبح.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألون وهو أعلم بهم فيقول: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون: تركناهم وهو يصلون وأتيناهم وهم يصلون "(٣).

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال: إذا كانت الملائكة ذكوراً فلم ذكر في جمعها جمع الإناث وهو المعقبات ؟

فالجواب فيه قولان:

الأول: قال الفراء: المعقبات ذكران، جمع ملائكة معقبة، ثم جمعت معقبة بمعقبات. كما قيل: أبناوات سعد ورجالات بكر، جمع رجال(٤).

والذي يدل على التذكير قوله: " يحفظونه ".

الثاني: وهو قول الأخفش(٥): " إنما أنثت لكثرة ذلك منها، نحو نسابة وعلامة وهو ذكر.

(١) سورة التحريم: الآية (٦).
(٢) سورة الانفطار: الآيات (١٠-١٢).
(٣) صحيح البخاري كتاب: مواقيت الصلاة – باب: فضل صلاة العصر.
(٤) معاني القرآن. تأليف / أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، المتوفى سنة ٢٠٧هـ (٦٠/٢، ط / عالم الكتب.
(٥) معاني القرآن.

ثم بعد ذلك وضحت الآية الكريمة أن الله الحكم العدل الرحيم بعباده لا يغير نعمة أنعمها على جماعة من الناس إلا بما صنعوا أو بدلوا عملهم الصالح بعمل شيء: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢).

وروى البخاري بسنده عن زينب بنت جحش –رضي الله عنها– أنها قالت: " استيقظ النبي ﷺ من النوم محمراً وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وعقد سفيان تسعين أو مائة – قيل: أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم إذا كثر الخبث "(٣).

ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾.

ثم وضحت الآية الكريمة مظهر من مظاهر عدل الله في شئون عباده وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعاصي وجحود النعمة، فإن الله ﷻ لا يعصم الناس من عذابه عاصم ولا يدفعه دافع.

(١) سورة الشورى: الآية (٣٠).

(٢) سورة يونس: الآية (٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب: الفتن –باب: قول النبي ﷺ: ويل للعرب من شر قد اقترب (١٣/١٤) ح (٧٠٥٩).

بعض مظاهر قدرة الله

******

قال ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) ﴾.

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن خوف الله ﷻ عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا مرد له، أتبع ذلك بذكره الآيات الموضحات المشتملة على أمور ثلاثة، فهي دلائل على قدرة الله ﷻ وحكمته، وتشبه النعم والإحسان حيناً، وتشبه العذاب والقهر والنقمة حيناً آخر، وهذه الدلائل آيات الله في الآفاق، ثم يبين أن كل من في السماوات والأرض ساجد له خاضع لقدرته وعظمته.

أسباب النزول:

١ –روى عن عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة – أخا لبيد – أرسل وفداً إلى رسول الله ﷺ يقصدان قتله، فشغله عامر بالمجادلة، وجاء أربد من خلفه واستل السيف ليضربه، فثبتت يده على قائم السيف، وتنبه له رسول الله ﷺ وقال: اللهم اكفنيهما بما شئت، فأرسل الله صاعقة على أربد فقتلته، وأصيب عامر بغدة، فمات منها في بيت امرأة سلولية، فكان يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فنزلت.

٢ –وروى أن النبي ﷺ بعث إلى جبار يدعوه، فقال الجبار للدعاة: أذهب ربكم هذا ؟ أم فضة ؟ أم لؤلؤ ؟ فبينما هو يجادل الصحابة الدعاة إذا بصاعقة انقضت عليه من بين الجالسين فأحرقته، فلما ذهبوا إلى النبي ﷺ ليخبروه، استقبلهم جماعة من الصحابة وقالوا لهم: احترق صاحبكم، فقالوا لهم: من أين علمتم ؟ فقالوا: من الوحي، فقد أوحى الله إليه ﷺ قوله ﷻ: " وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ "(١).

تفسير الألفاظ وتحليها:

" البرق": ما يراه الرائي من نور لامع يظهر من خلال السحاب.

" خوفاً وطمعاً ": أي خائفين من أن تنزل بكم صاعقة وطامعين أن ينزل لكم غيث.

قال قتادة: خائفين في سفركم من أذى المطر، طامعين في حضركم أن يأتيكم الخصب.

ويقول الزمخشري بشأن الخوف والطمع: " ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق، ويطمع في الغيث "(٢).

فوجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر، لما أن المخوف عليه النفس أو الرزق العتيد، والمطموع فيه الرزق المترقب، وقيل: الخوف أيضاً من المطر، لكن الخائف فيه غير الطامع فيه كالخزاف والحراث، ويأباه الترتيب اللهم إلا أن يتكلف ما أشير إليه من أن المخوف عتيد، والمطموع فيه مترقب.

ونصب "خوفاً وطمعاً " حالان من الكاف في " يريكم "، أو هما في محل المفعول لأجله.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص(١٥٦)، تفسير ابن كثير (٥٠٥/٢).
(٢) الكشاف (١٦١/٢).

وفي قوله: " خوفاً وطمعاً " طباق، وهو من المحسنات التي تكسب الكلام جمالاً وإعجازاً.

والمعنى: هو وحده ﷻ الذي يجعلكم ترون بقدرته البرق وتبصرونه، مما يجعل البعض يخاف ما يكون بسببه من صواعق أو سيل مدمر، والبعض يطمع في الخير من ورائه، فقد يعقبه المطر النافع والخير الكثير.

" وينشئ السحاب الثقال ".

إنشاء السحاب: تكوينه من العدم. والسحاب: الغيم المنسحب في الهواء(١)، وهو اسم جنس واحده سحابة ؛ فلذلك وصف بالجمع وهو "الثقال" جمع ثقيلة.

أي: هو ﷻ الذي يجعل السحاب المثقل بالماء فيرسله من مكان إلى مكان على حسب حكمته ومشيئته.

وجاء قوله: " ينشئ" مضارعاً ليفيد تجدد الإنشاء وحدوثه مرة بعد مرة.

وقد ورد هذا المعنى في آيات أخرى تدل على قدرته وحكمته، فقال ﷻ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢).

قوله ﷻ:"ويسبح الرعد بحمده". فهذه الآية مظهر آخر من مظاهر قدرته.

" الرعد": اسم للصوت الهائل الذي يسمع إثر احتكاك الأجرام السماوية بعضها ببعض.

(١) معاني القرآن للزجاج (١٤٢/٣).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

والتسبيح: مشتق من السبح وهو المر السريع في الماء أو في الهواء وسمى الذاكر لله ﷻ مسبحاً ؛ لأنه مسرع في تنزيهه ﷻ عن كل نقص.

وعطف ﷻ " الرعد " على " البرق " والسحاب ؛ لأنه مقارن لهما في كثير من الأحوال.

وتسبيح الرعد: هو هذا الصوت الهائل يحمد الله، فهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا هو ﷻ، فيجب أن نؤمن به، ونفوض كيفيته إلى الله ﷻ، فهناك آيات كثيرة في كتابه العزيز تبين أن كل شيء يسبح بحمده فقال ﷻ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (١).

فقد وضح معنى هذه الجملة الكريمة الإمام الآلوسي، فقال – رحمه الله – ما ملخصه: " وقوله: " ويسبح الرعد " قيل: هو اسم للصوت المعلوم، والكلام على حذف مضاف، أي: ويسبح سامعوا الرعد بحمده ﷻ رجاء المطر.

ثم قال: والذي اختاره أكثر المحدثين كون الإسناد حقيقياً بناء على أن الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب، فقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وآخرون عن ابن عباس: أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا ما هذا الرعد ؟ فقال: ملك من ملائكة الله ﷻ موكل بالسحاب، بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله ﷻ. قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع ؟ قال: صوته. قالوا: صدقت "(٢).

ثم قال: واستشكل بأنه لو كان علما للملك لما ساغ تنكيره، وقد نكر في سورة البقرة في قوله ﷻ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ (٣).

(١) سورة الإسراء: الآية (٤٤).
(٢) ينظر: مسند أحمد ( )، سنن الترمذي كتاب:
(٣) سورة البقرة: الآية (١٩).

وأجيب: بأن له إطلاقين.... ثانيهما: إطلاقه على نفس الصوت، والتنكير على هذا الإطلاق"(١).

والذي أراه: أن تسبيح الرعد بحمد الله يجب الإيمان به سواء أكان الرعد اسماً لذلك الصوت المخصوص، أم اسماً لملك من الملائكة، أما كيفية هذا التسبيح فمردها إلى الله.

قال الإمام الشوكاني: " قوله: " ويسبح الرعد بحمده " أي: يسبح الرعد نفسه بحمد الله، أي متلبساً بحمده، وليس هذا بمستبعد، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك.

فأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد في ذلك، ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له وعناية له" (٢).

وقال الإمام ابن كثير: " قال الإمام أحمد: حدثنا عفان.... عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: اللهم لا تقتلنا بفضلك، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك.

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من يسبح الرعد بحمده.

ولكن يبقى سؤال: هل تسبيح الرعد وغيره من الكائنات بلسان الحال أم بلسان المقال ؟

من العلماء من يرى أن تسبيح هذه الكائنات بلسان الحال.

قال بعض العلماء: تسبيح هذه الكائنات لله ﷻ هو دلالتها بإمكانها وحدوثها وتغير شئونها، وبديع صنعها على وجود مبدعها، ووحدته وقدرته، وتنزهاً عن لوازم الإمكان والحدوث، كما يدل الأثر على المؤثر فهي دلالة بلسان الحال، لا

(١) تفسير الآلوسي (١٠٦/١٣) ط/ منير الدمشقي.
(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني (٧٢/٣).

يفقهها إلا ذووا البصائر، أما الكافرون فلا يفقهون هذا التسبيح ؛ لفرط جهلهم وانطماس بصيرتهم"(١).

ومنهم من يرى أن تسبيحها بلسان المقال، أي أن التسبيح بمعناه الحقيقي، فالكل يسبح بحمد الله ولكن بلغته الخاصة التي لا يفهمها الناس.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: " وقوله: " وإن من شيء إلا يسبح بحمده "، أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله "ولكن لا تفقهون تسبيحهم " أي: لا تفقهون تسبيحهم – أيها الناس – لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد.

وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري وغيره، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وفي حديث أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، وهو حديث مشهور في المسانيد.

ثم قال: ويشهد لهذا القول آية السجدة في أول سورة الحج، وهي قوله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ (٢) "(٣).

والذي تطمئن إليه النفس: أن التسبيح حقيقي وبلسان المقال؛ لأن هذا هو الظاهر من الآية الكريمة ؛ ولأن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤيد ذلك.

وقوله ﷻ: " والملائكة من خيفته ".

(١) تفسير ابن كثير (٧٤/٥).
(٢) سورة الحج: الآية (١٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٧٦/٥) ط/دار الشعب.

وهذا دليل آخر على وحدانية الله وقدرته.

أي: يسبح الملائكة، والملائكة من عطف العام على الخاص. قيل: المراد بهؤلاء أعوان ملك السحاب، جعل الله ﷻ مع الملك الموكل بالسحاب المسمى بالرعد أعواناً من الملائكة. وقيل: المراد جميع الملائكة وهو أولى.

" من " في قوله ﷻ: " من خيفته " للتعليل، أي: يسبحون لأجل الخوف منه.

قال الإمام الفخر الرازي: " واعلم أن من المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره، وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية، وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله، فهذا الذي قاله المفسرون بهذه العبارة هو ما ذكره المحققون عن الحكماء، فكيف يليق بالعاقل الإنكار "(١).

قوله ﷻ: " ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء".

وهذه الآية من الظواهر الكونية الدالة على كمال قدرته ﷻ.

و " الصواعق": جمع صاعقة، وهي كما يقول ابن جرير: " كل أمر هائل رآه الرائي أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل.. "(٢).

والمراد بها هنا: النار النازلة من السماء.

أي: ويرسل ﷻ النار المحرقة النازلة من البرق فيصيب بها من يشاء من خلقه.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزل هذه الآية روايات، منها:

(١) مفاتيح الغيب (٢١٥/١٧).
(٢) تفسير ابن جرير (٢٩٠/١).

١ –روى أن عامر بن الطفيل – أخا لبيد – أرسل وفدا إلى رسول الله ﷺ يقصدان قتله، فشغله عامر بالمجادلة، وجاء أربد من خلفه واستل السيف ليضربه، فثبتت يده على قائم السيف، وتنبه له رسول الله ﷺ وقال: اللهم اكفنيهما بما شئت، فأرسل الله صاعقة على أربد فقتلته، وأصيب عامر بغدة، فمات منها في بيت امرأة سلولية، فكان يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فنزلت.

٢ –وروى أن النبي ﷺ بعث إلى جبار يدعوه، فقال الجبار للدعاة: أذهب ريكم هذا ؟ أم فضة ؟ أم لؤلؤ ؟ فبينما هو يجادل الصحابة الدعاة إذا بصاعقة انقضت عليه من بين الجالسين فأحرقته، فلما ذهبوا إلى النبي ﷺ ليخبروه، استقبلهم جماعة من الصحابة وقالوا لهم: احترق صاحبكم، فقالوا لهم: من أين علمتم ؟ فقالوا: من الوحي، فقد أوحى الله إليه ﷺ قوله ﷻ: " وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ "(١).

وعن أبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: "الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر"(٢).

و " من " مفعول لقوله ﷻ: " فيصيب" ومفعول " يشاء" محذوف تقديره: من يشاء إصابته يرسل الصواعق.

أي: فيهلك بها من يشاء إهلاكه وإصابته.

قوله ﷻ: " وهم يجادلون في الله ".

ضمير الجماعة في قوله: " وهم يجادلون" يعود إلى الكفار. والمجادلة: المخاصمة والمراجعة في القول. أي: أن هؤلاء الكفار يخاصمون في شأن الله ﷻ

(١) أسباب النزول للواحدي ص(١٥٦)، تفسير ابن كثير (٥٠٥/٢).

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور (٦١/٤)، وأخرجه القرطبي في كتابه التذكار في أفضل الأذكار ص(٢٤٢)، تح أ د / حمزة النشرتي.

فينكرون لقاءه وبعثه للناس تارة، وينكرون رسوله ويكذبونه ويكفرون بما أنزله على رسوله تارة أخرى.

وهذه الجملة في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة.

" وهو شديد المحال ":

"المحال ": هو الشدة والقوة والعقوبة، والكيد والمكر، أي: التدبير بالحق إذا نسب لله.

والمعنى:أن أخذه وعقابه قوى غالب: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١).

والمحال من المماطلة، وهي شدة المماكرة والمكايدة، ومنه تمحل لكذا ؛ إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان.

والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون(٢).

أي: إن هؤلاء الكافرين يجادلونك أيها الرسول في ذات الله وفي وحدانيته وصفاته وفي شأن البعث، وينكرون ما جئتكم به. والحال: أن الله ﷻ شديد الماحلة والمكايدة والمعاقبة لأعدائه.

قال ﷻ: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * ﴾ (٣).

" له دعوة الحق ".

أي أن دعوته هي الدعوة الحق وما عداها فهو باطل، فله وحده ﷻ الدعوة الحق المطابقة للواقع ؛ لأنه هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، فهو الحقيقي بالعبادة.

---

(١) سورة البروج: الآية (١٢).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٣٥٨/٥)، الكشاف (١٦١/٢).

(٣) سورة النمل: الآيتان (٥٠، ٥١).

وقال صاحب " الفتوحات الإلهية ": " إن هذه الإضافة من إضافة الموصوف إلى صفته أي الدعوة الحق المطابق للواقع، ومعنى كونها له ﷻ أنه شرعها وأمر بها، وجعلها افتتاح الإسلام بحيث لا يقبل بدونها(١).

قال الشوكاني: " قوله: " له دعوة الحق " إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة.

أي: الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه.

وقيل: الحق هو الله ﷻ، والمعنى: أن لله ﷻ دعوة المدعو الحق، وهو الذي يسمع ويجيب.

وقيل: المراد بـ "دعوة الحق " هنا كلمة التوحيد والإخلاص.

والمعنى: لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له العبادة.

وقيل: دعوة الحق: دعاؤه ﷻ عند الخوف، فإنه لا يدعي فيه سواه، كما قال ﷻ:﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (٢).

وقيل: الدعوة الحق، أي: العبادة الحق فإن عبادة الله هي الحق والصدق"(٣).

ثم وضح الله ﷻ حال من يعبد غيره فقال ﷻ: " وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ":

والمراد بالموصول "والذين": الأصنام التي يعبدها المشركون من دون الله.

والضمير في "يدعون" للمشركين، ورابط الصلة ضمير نصب محذوف، أي: يدعونهم.

والمعنى: لله ﷻ العبادة الحق والتضرع الحق النافع، أما الأصنام التي يعبدها هؤلاء المشركون من دون الله لا تستجيب لهم بشيء من طلباتهم التي يطلبونها منهم إلا استجابة باسط كفيه، أي كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه

(١) الفتوحات الإلهية للجمل (٤٩٦/٢).
(٢) سورة الإسراء: الآية (٦٧).
(٣) تفسير فتح القدير للشوكاني (٧٣/٣).

أن يبلغ فاه، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم.

والمقصود من الجملة الكريمة نفي استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفياً قاطعاً، حيث شبه ﷻ حال هذه الآلهة الباطلة عندما يطلب المشركون منها ما هم في حاجة إليه بحال إنسان عطشان، ولكنه غبي أحمق ؛ لأنه يمد يده إلى الماء طالباً منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه فلا يصل إليه شيء من الماء ؛ لأن الماء جماد لا يسمع نداء من يناديه.

وأجرى ﷻ على الأصنام ضمير العقلاء في قوله " لا يستجيبون" مجاراة للاستعمال الشائع عند المشركين ؛ لأنهم يعاملونها معاملة العقلاء، ونكر " شيئاً " في قوله: " لا يستجيبون لهم بشيء " للتحقير. والمراد: أنهم لا يستجيبون لهم أية استجابة حتى ولو كانت شيئاً تافهاً.

والاستثناء في قوله: " إلا كباسط كفيه إلى الماء.." من أعم الأحوال أي: لا تستجيب الأصنام لمن يطلب منها شيئاً، إلا استجابة كاستجابة الماء لملهوف بسط كفيه إليه يطلب منه أن يدخل فمه، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه، ولا يقدر أن يجيب طلبه ولو مكث على ذلك طوال حياته.

والضمير " هو" في قوله: " وما هو ببالغه" للماء، والهاء في "ببالغه" للفم، أي: وما الماء ببالغ فم هذا الباسط لكفيه.

وقيل الضمير " هو" للباسط، والهاء للماء، أي: وما الباسط لكفيه ببالغ الماء فمه.

قال القرطبي: " في معنى هذا المثل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً ؛ لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه. قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبغ فاه، وما هو ببالغه، لكذب ظنه وفساد توهمه. قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه، فلا يجمد في كفه شيء منه"(١).

وقد ضربت العرب مثلاً لمن سعى فيما لا يدركه بالقبض على الماء، كما قال الشاعر:

ومن يأمن من الدنيا يكن مثل قابض ∴ على الماء خانته فروج الأصابع(٢).

∴

وقوله ﷻ: " وما دعاء الكافرين إلا في ضلال":

أي: وليست عبادة الكافرين ولا سؤالهم إلا في ضياع لا نفع فيها ؛ لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن أن تملك ذلك لغيرها.

ثم بعد ذلك بين الله ﷻ أن الكون كله خاضع له فقال ﷻ: " "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ".

"يسجد": السجود في الأصل: وضع الجبهة على الأرض على سبيل الاحترام والتعظيم، وفيه تعبير مادي عملي عن نهاية الخضوع القلبي والنفسي، والمراد بالسجود في الآية: ما يشمل نهاية الخضوع المادي والمعنوي، سواء أكان بالإرادة أو بدونها، وسواء أكان مع الرغبة أو مع الكره (٣).

---

(١) تفسير القرطبي (٣٠١/٩).

(٢) تفسير الشوكاني (٧٣/٣).

(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. ا د / وهبه الزحيلي، ط / دار الفكر، دمشق (١٣٥/١٣) بتصرف.

" من في السماوات" من الملائكة. " والأرض": أي ومن في الأرض من الإنس والجن.

" طوعاً وكرهاً ": الطوع: هو كمال الانقياد والاستسلام مع عدم الرغبة بالمعارضة، فالمطيع من المكلفين لأمر التكليف هو المنقاد بالإرادة الذي لا يجد في نفسه من ذلك حرجاً، والمطيع لأمر التكوين هو المستسلم بلا معارضة ؛ لنفوذ المشيئة فيه (١).

" كرهاً " الكَره والكُره بفتح الكاف وضمها هو ضد الرغبة بالشيء، وقد يصاحبه انقياد واستسلام ؛ لعدم القدرة على المعارضة، ودفع الأمر المكروه(٢).

قال صاحب " الفتوحات الإلهية": " وقوله " طوعاً" يرجع لمن في السماوات والأرض كالمؤمنين، أي من الثقلين، أي وكالملائكة.

وقوله: " وكرهاً ": راجع لمن في الأرض فقط.

" وطوعاً وكرهاً": حالان من " من " أي: حالة كونهم طائعين وراضين بالسجود، وحال كونهم كارهين، أي: غير راضين به(٣).

ومصدران وضعا موضع الحال، أو مفعول به.

وفي قوله: " طوعاً وكرهاً ": طباق.

" وظلالهم": أي: وتنقاد له ﷻ ظلال من له ظل منهم، أعني الإنس حيث تتصرف على مشيئته، وتتأتى لإرادته في الامتداد والتقلص والفئ والزوال.

---

(١) تفسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير. محمد نسيب الرفاعي(٥١٥/٢) بتصرف.
(٢) سورة الرعد دراسة أدبية وفكرية ص(١٢٤).
(٣) الفتوحات الإلهية للجمل (٤٩٧/٢).

قال الراغب: " الظل ضد الصبح، وهو أعم من الفئ، فإنه يقال: ظل الليل وظل الجنة، ويقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل، ولا يقال الفئ إلا لما زال عنه الشمس، ويعبر بالظل عن العزة والمنفعة وعن الرفاهية، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ﴾ (١) أي: في عزة ومتاع. وقوله: " ولله يسجد" إلى قوله: " وظلالهم" قال الحسن: أما ظلك فيسجد لله، وأما أنت فتكفر به "(٢).

والغدو: جمع غدوة وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

" والآصال": جمع أصيل وهو ما بين العصر وغروب الشمس، والمعنى: ولله ﷻ يخضع جمع من في السماوات والأرض من الملائكة والجن والإنس وغير ذلك من المخلوقات.

ويستوي في هذا الخضوع المؤمن والكافر، إلا أن المؤمن خاضع بذاته وبظاهره وباطنه طواعية.

أما الكافر فهو خاضع لله ﷻ بذاته، ولكنه جاحد ومتمرد.

قال ﷻ: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٣).

القراءات القرآنية:

قرأ الأعرج قوله ﷻ: " وهو شديد المحال " بفتح الميم في المَحال، وقراءة الجمهور بكسر الميم.

قرأ اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاء " الذين يدعون من دونه " بتاء الخطاب "تدعون" وقرئ "كباسطٍ كفيه" بالتنوين، أي: كشخص يبسط كفيه.

(١) سورة المرسلات: الآية (٤١).
(٢) المفردات ص(٣١٤).
(٣) سورة آل عمران: الآية (٨٣).

وقرأ أبو مجلز: " والإيصال" قال أبو الفتح: هو مصدر آصلنا: أي دخلنا في وقت الأصيل ونحن مؤصلون(١).

المعنى العام للآيات:

الله ﷻ وحده الذي يسخر البرق ويكشف لهم النور اللامع من خلال السحاب، وأنه ﷻ هو وحده الذي يوجد ويخلق السحب المثقلة بالأمطار وهذا كله مما يدل على كمال قدرته فآمنوا به وبلقائه، ولا تستبعدوا البعث ولا تنكروه.

وفي الآية الثانية: يخبر الله ﷻ بأن الرعد يعظمه ويثني عليه، وكذلك الملائكة ؛ إجلالاً لعزته وخوفاً من غضبه وبطشه، وأنه ﷻ يبعث النار المحرقة التي تتطاير من شرر البرق فينزلها على من يريد إهلاكه من عباده ومخلوقاته، ومع وضوح قدرته، فالكفار يخاصمون ويجادلون، فيكفرون به وبقدرته على البعث ويكذبون رسوله ﷺ الناطق بالصدق وكتابه الحق.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " إن ربكم يقول: لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد "(٢).

ويخبر كذلك في الآية الثالثة: بأن الدعاء الحق لا يكون إلا له، والسؤال والعبادة الخالصة لا تكون إلا له وحده لا شريك له، فهو وحده المستحق للعبادة والدعاء " وإذا سالت فاسأل الله"، ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ﴾ (٣).

(١) المحتسب لابن جني (٣٥٦/١).
(٢) أخرجه الحاكم في كتاب: التفسير (٣٤٩/٢)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ط / دار الفكر.
(٣) سورة النحل: الآية (٥٢).

أما ما يعبدوه من آلهة باطلة من دون الله فإنها عاجزة لا تستطيع أن تجيب لهم سؤالاً ولا تحقق لهم منالاً، إلا إجابة شبيهة بإجابة الماء لمن يمد يده إليه، وهو بعيد عنه لكي يتجه الماء إلى فمه فيصل إليه، ولا يمكن للماء أن يصل إلى فمه؛ لأنه لا يقدر على الاستجابة لهذا الطلب؛ لأنه لا يعقله، وكذلك دعاء الكفار وسؤالهم وعبادتهم هالكة وضائعة لا نفع فيها ولا استجابة لها، فهي استجابة معدومة كاستجابة الماء لمن يبسط كفيه ومدها للماء ليرتفع إلى فمه وهيهات.

وفي الآية الرابعة: يخبر الله ﷻ بأن العالم كله – العلوي والسفلي – منقاد له ؛ لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل، وقد ورد السجود لله ممن في السماوات والأرض في آية أخرى وهي قوله ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١).

وفي سورة الحج قوله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢).

فهذا العالم كله يسجد له سجوداً حقيقياً، فبعضه يسجد طائعاً عن رغبة واختيار كالملائكة والمؤمنين من الإنس والجن، وبعضه يسجد مجبراً كارهاً كالمنافقين، وكالكفار الذين استجابوا للسيف وكذلك ظلال هذه المخلوقات تنقاد لله وتسجد إلى اليمين أو الشمال، وفي آخر النهار عندما يبدأ في التطاول والميل

(١) سورة النحل: الآية (٤٩).
(٢) سورة الحج: الآية (١٨).

لجهة أخرى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (١).

قال صاحب " الظلال ": " ولأن الجو جو عبادة ودعاء، فإن السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله ﷻ بالسجود، وهو أقصى رمز للعبودية، ثم يضم إلى شخوص من في السماوات والأرض ظلالهم، كذلك ظلالهم بالغدو في الصباح، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال، يضم هذه الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال، وهي في ذاتها حقيقة، فالظلام تبع للشخوص ثم تلقى هذه الحقيقة ظلها على المشهد، فإذا هو عجب، وإذا السجود مزدوج مشخوص وظلال، وإذا الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جائية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء كلها تسجد لله... وأولئك الخائبون يدعون آلهة دون الله " (٢).

(١) سورة النحل: الآية (٤٨).
(٢) في ظلال القرآن (٢٠٥٢/٤).

بيان أن الله واحد وأنه خالق كل شيء

*****

قال ﷻ: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾.

علاقة الآية بما قبلها:

بعد أن بين الله ﷻ أن كل من في السماوات والأرض ساجد له، فالمؤمنون من الجن والإنس يسجدون لله ﷻ، وأما الكافرون فسجدوهم بمعنى كونهم خاضعين له، ثم بعد ذلك عاد إلى الرد على عبدة الأصنام فقال: " قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ".

ولما كان هذا الجواب جواب يقربه المسئول ويعترف به ولا ينكره أمر ﷻ نبيه ﷺ أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهاً على أنهم لا ينكرونه أبداً.

تفسير الألفاظ وتحليلها:

" قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ".

الرب: لغة هو المالك، والسيد المُطاع، والصاحب، والمُربي، فرب الدار أي مالكها.

وقول صفوان بن أمية لأبي سفيان يوم حنين: " لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن "، أي:لأن يسودني.

ويقال عن النساء: هن ربات الجمال، أي صاحبات الجمال.

والرب في الأصل: مصدر كالتربية، والتربية: إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حد التمام، يقال: ربه يربه رباه ورباه يربيه تربية، وربه يربه تربيباً، ثم استعيرت كلمة " رب" من المصدرية إلى اسم الفاعل، ولما كانت التربية الحقيقية لله ﷻ ؛ لأنه هو الذي يخلق الأشياء وينشئها طوراً فطوراً كان الأحق بأن يطلق عليه أنه " الرب" أي: الخالق المنشئ.

ومن حق الخالق المنشئ المربي أن يكون هو المالك والسيد المطاع، والإله المستحق للعبادة؛ لذلك فإذا أطلقت كلمة الرب لم يجز أن يراد بها غير الله ﷻ (١).

ولملاحظة معنى الخلق والإنشاء في كلمة الرب جاء معنى الملك والإلهية بحكم المرتبين على مضمون معناها في سورة الناس ؛ إذ يقول ﷻ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ* ﴾ (٢)، أي: فمن كان رباً لابد أن يكون مالكاً ومليكاً، ولابد أن يكون إلهاً مستحقاً للعبادة، ومثل ذلك في سورة الفاتحة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٣).

والمعنى: اسألهم يا محمد: من خالق السماوات والأرض ؟ ومنشئ كل شيء فيهما ؟ وممده بالتربية والنماء حتى بلغ مرتبة كماله ؟

وذلك ليحدد موقفهم من توحيد الربوبية لله ﷻ، فإن أقروا بأن الله هو الرب وحده فانتقل بهم إلى نقطة الخلاف وهي نقطة توحيد الإلوهية.

وبما أن معظم مشركي العرب يعتقدون بتوحيد الربوبية، وإنما ينكرون توحيد الإلوهية قال الله لنبيه: **" قل الله "** أي أعلن الاتفاق معهم على هذه النقطة الأساسية من نقاط مجادلتك لهم إقامة الحجة عليهم وإلزامهم بالحق الذي تدعوهم إليه "(٤).

" أفاتخذتم من دونه أولياء":

(١) فتح القدير (٤١/١) باختصار.
(٢) سورة الناس: الآيات (١-٣).
(٣) سورة الفاتحة: الآيات (٢-٥).
(٤) تفسير أبي السعود (١٥٥/٣).

أي: أفاتخذتم غير الله الذي سلمتم بربوبيته أولياء.

" أولياء": جمع ولي، والولي والمولى في كلام العرب واحد، ومن معانيه في كلامهم الناصر والرب والمالك والسيد، والمنعم والمحب والتابع، وكل من ولى أمراً أو قام به فهو مولاه ووليه، والمشركون قد اتخذوا من دون الله أولياء، أي جعلوا الشركاء أرباباً وسادة ومالكين ومنعمين وناصرين ؛ ولذلك عبدوهم، وكلما حزبهم أمر التجأوا إليهم وطلبوا منهم على سبيل الدعاء.

فالهمزة: للاستفهام التوبيخي، والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة، والتقدير: أكفرتم فاتخذتم ؟

والمعنى: أعلمتم حق العلم أن الله ﷻ هو الخالق للسماوات والأرض فتركتم عبادته ﷻ واتخذتم من دونه أولياء، أي: نصراء عاجزين لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن أن يملكوا لغيرهم نفعاً يجلبونه لها ولا ضراً يدفعون عنها.

وجملة " لا يملكون": صفة لأولياء ؛ لأنها نكرة والجمل بعد النكرات صفات، والمقصود بها: تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة، فإنهم وإن أحسنوا التفكير في هؤلاء الأولياء أيقنوا أنهم أحقر من أن ينظر إليهم فضلاً عن أن يطلبوا منهم شيئاً.

بعد ذلك برهن لهم الرسول الكريم ﷺ على بطلان معتقداتهم عن طريق ما هو مشاهد بالحواس فقال ﷻ: " هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ".

ففي هذه الآية ثلاثة أسئلة:

أولها: هل يستوي الأعمى والبصير، وهذا سؤال يوجهه النبي ﷺ، هل يتساوى الضرير الذي لا يرى ولا يبصر مع البصير الذي يرى ويبصر ؟

والجواب: بالبداهة والضرورة بالنفي فهما لا يتساويان.

إذا فكذلك المبطل الكافر المشرك الجاهل الذي يعبد من لا يستحق العبادة، ويكفر بمن يستحق التوحيد والطاعة فهو لا يتساوى مع المؤمن المقر لربه بالوحدانية.

ثانيها: هل يستوي الظلمات والنور ؟ يوجهه الرسول ﷺ هل تتساوى طرق الكفر المظلمة الملتوية الضالة مع طريق الحق الواضح المستقيم ؟

والجواب: كسابقه كلا لا يتساويان، إذا فالحق أحق أن يتبع.

ثالثها: أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ؟ فيه تنزل إليهم حتى لا تكون لهم حجة ولا شبه حجة: هل الآلهة التي جعلتموها شركاء لله في العبادة، كانوا شركاء له في الخلق أيضاً ؟ فخلقوا أشياء كما خلق هو ﷻ أشياء فاختلطت والتبست مخلوقاتهم بمخلوقاته ﷻ فاعتقدتم أنهم

يستحقون العبادة كما يستحقها هو ؛ لأنهم خالقون كما هو خالق ؟

والجواب: بدهي: لا خالق إلا الله، فإن نطقوا به لزمهم ألا يعبدوا إلا الله وإن نكثوا عن الحق، فأجب.

والمراد من الأعمي: الكافر، وبالبصير: المؤمن. كما أن المراد من الظلمات: الكفر، وبالنور: الإيمان.

وعبر القرآن في جانب الظلمات بصيغة الجمع، وفي جانب النور بصيغة الإفراد ؛ لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته.

أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها، فهناك ظلمة الليل وظلمة النهار، وظلمة العقول التي كان من نتائجها تعدد أنواع الضلال والفسوق والكفر، كما هو الحال في شأن اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الذين ضلوا طريق الحق والهداية.

ثم تغير الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة إهمالاً لشأنهم وإعراضاً عنهم فقال ﷻ: " أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِم ".

" أم ": هنا بمعنى بل، والاستفهام للإنكار، أي: أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق، وهم لن يخلقوا شيئاً حتى وإن كان ذباباً، قال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (١).

وقوله: " كخلقه": في معنى المعقول المطلق، أي: خلقوا خلقاً شبيهاً بما خلقه الله ﷻ.

" فتشابه ": معطوفة على جملة: " خلقوا ".

ثم أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يوضح لهم الحق الواضح، فقال ﷻ: " قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ".

" القهار ": الذي لا يغالبه مغالب ولا يعانده معاند، أي: قل لهم أيها الرسول الكرم: الله خالق كل شيء فلا خالق سواه، فيجب الاعتراف له بالوحدانية في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، وأنه القاهر فوق عباده، والغالب لكل من غالبه.

وهذا على ما قيل كالنتيجة لما قبله، وهو يحتمل أن يكون من مقول القول وأن يكون جملة مستأنفة(٢).

(١) سورة الحج: الآية (٧٣).
(٢) سورة الطور: الآيات (٣٥-٣٧).

روى البخاري بسنده عن محمد بن جبير بن معطم، عن أبيه ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ * ﴾ (١) كاد قلبي أن يطير.

قال سفيان: فأما أنا فإنما سمعت الزهري يحدث عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب الطور لم أسمعه زاد الذي قالوا لي "(٢).

القراءات القرآنية:

قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالباء في قوله ﷻ: " أم هل تستوي": الباقون بالتاء مؤنثاً ولم يدغم أحد لام "هل" في تاء " تستوي" لأن المدغم يقرأ بالتذكير، وورد كل من الإظهار والإدغام عن هشام، والأكثر عنه على الإظهار(٣).

المعنى العام:

الآية الكريمة تظهر حقيقة واضحة بينها لهم الرسول الكريم أن الله ﷻ هو رب السماوات والأرض وهو الذي خلقهما وتولى أمرهما وهناك من الآيات ما يدل على ذلك كقوله ﷻ: ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ (٤).

(١) تفسير أبي السعود (١٥٧/٣)، تفسير الآلوسي (٤٧٤/٨).
(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب: التفسير –باب: تفسير سورة الطور (٤٦٩/٨) ح (٤٨٥٤).
(٣) النشر في القراءات العشر (٢٩٧/٢)، وإتحاف فضلاء البشر (١٦١/٢).
(٤) سورة الأحقاف: الآية (٣).

وقال ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * ﴾ (١).

ففي هذه الآية يأمر الله ﷻ رسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين من رب هذه الأجرام العلوية والسفلية، فإذا ما أبوا الرد عليك عناداً وتكبراً فجانبهم بالحقيقة التي لا يستطيعون إنكارها وهو أن الله وحده هو رب الأجرام؛ لأنه هو خالقها.

ثم تبين الآية بعد ذلك أن المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها لا يستوي مع الموحد العالم بذلك، وفي الكلام استعارة تصريحية، والقرآن الكريم يقرر أن الأعمى والبصير لا يستويان، قال ﷻ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴾ (٢)، فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يعلم الحق فيتبعه، ويعرف الهدى فيسلكه، وأنتم أيها المشركون لا تعرفون حقاً ولا تبصرون رشداً.

وكذلك لا يستوي الظلمات والنور، فالحق أنهما لا يستويان، فالظلمات هي الكفر والضلال، والنور عبارة عن الإيمان والتوحيد، أما الكفر بالله فإنما صاحبه منه في حيرة يضرب أبداً في غمرة لا يرجع منه إلى حقيقة، والإيمان بالله صاحبه منه في ضياء يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأن له مثيباً يثيبه على إحسانه ومعاقباً يعاقبه على إساءته ورازقاً يرزقه ونافعاً ينفعه.

وقوله: " أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ".

يقول الدكتور / يوسف القرضاوي – حفظه الله –: " كيف جعلوهم شركاء وليس لهم خلق ؟ إن الإله الذي يستحق العبادة هو الخالق الذي خلق هؤلاء وخلق الشركاء أيضاً فهم مخلوقون ؛ فلهذا قال الله ﷻ: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ﴾ (٣) "(١).

(١) سورة ص: الآيتان (٦٥، ٦٦).
(٢) سورة فاطر: الآيتان (١٩، ٢٠).
(٣) سورة الفرقان: الآية (٣).

ثم ختمت الآية ببيان أن الله خالق كل شيء، لا خالق سواه فيشاركه في استحقاق العبادة، فهذا المتوحد بالألوهية المتفرد بالربوبية.

(١) يراجع: تفسير سورة الرعد لفضيلته ص(١٦٦، ١٦٧) ط/ دار البشير.

أمثلة للحق والباطل

وحسن عاقبة المستجيبين للحق وسوء عاقبة المعترضين

*****

قال ﷻ : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾ .

علاقة الآيات بما قبلها :

بعد أن ضرب الله مثل الأعمى والبصير للمؤمنين والكافرين ، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر ضرب هنا مثلاً للحق وأصله ، وهما الماء الصافي والجوهر النقي اللذان ينتفع بهما ، ومثلين للباطل وأصله وهما زبد الماء والجوهر اللذان لا نفع فيهما .

تفسير الألفاظ وتحليلها :

قال ﷻ : " **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** " .

" **من السماء** " : أي من جهة العلو بالنسبة إلى الأرض ، والمراد السحاب . " **ماء**" : أي مطراً . " **فسالت** " بذلك الأودية .

" **الأودية** " : جمع واد وأصل الوادي الموضع المتسع الذي يسيل فيه الماء ، ومنه سمي ما بين الجبلين وادياً ، وقيل : الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة [1].

(١) التفسير المنير (١٣/١٤٤) .

" **بقدرها** " : أي بمقدار سعتها لاستيعاب الماء ، كل بحسبه ، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره ، وقد أسند فعل " سال" إلى الأودية والمراد مياه السيول فيها إشعاراً بانغمار الأودية بالمياه ، وبشدة تدفق السيول حتى ليخيل للناظر أن الوديان – أي الأمكنة – تسيل مع قوة تدفق الماء .

وقوله ﷻ : " **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ** ..." .

شبه الله ﷻ الحق والباطل بتشبيه رائع يسمى " التشبيه التمثيلي" ؛ لأن وجه الشبه فيه منتزع من متعدد تمثل الحق بالماء الصافي الذي يستقر في الأرض ، والجوهر الصافي من المعادن الذي به ينتفع العباد ومثل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الأرض ، والخبث من الجوهر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل ، والصورة التي توحي بها الآية – صورة الحق والباطل – وهما في صراع كالزبد الذي تتقاذفه الأمواج[1] وفيه دلالة على وحدانية الله .

والتنكر في كل من " ماء " و " أودية " للتكثير والتعظيم[2].

قوله ﷻ : " **بقدرها** " : يدل على الحكمة؛ إذ أنه لم يجعله غائباً فيضر بالشرق ، ولا فائضاً فيؤذي بالغرق ، والباء للملابسة .

والمعنى : أن الله ﷻ أنزل من السماء ماء كثيراً وغزيراً فسالت المياه مالئة أوديتها كل واد منها بمقدار سعته الذي حدده الله ﷻ بحكمته بما ينفع الناس .

وقوله ﷻ : " **فاحتمل السيل زبداً رابياً** " .

" **احتمل** " : أي فحمل الماء السائل في الأودية بكثرة وقوة غثاء عالياً مرتفعاً فوق الماء طافياً عليه ليقذفه على شاطئيه .

---

(١) صفوة التفاسير (٥٠/١٣) .

(٢) سورة الرعد دراسة أدبية ولغوية وفكرية ص(١٥١)

و " **السيل**" : الماء الجاري في الأودية .

و " **الزبد** " : هو الغثاء الذي يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته واضطرابه .

" **رابياً** " : أي نامياً زائداً ، وفي هذا تصوير لما يحدث في الزبد من انتفاخ بسبب حركة الأمواج التي تقذف به لتنقيه عن الماء [١].

وهناك مثل ثان ضربه الله ﷻ في نفس الآية فقال : " **وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ** " .

" **من** " : في " **مما**" لابتداء الغاية أو للتبعيض ، أي وبعض ما يوقد النار عليه في النار وهي للمعادن وأشباهها ، ويقوي معنى التبعيض أن الناس يوقدون على أشياء لا زبد لها كالطين ليصير فخار [٢].

و " **ما** " : موصولة .

والجملة في محل رفع خبر مقدم ، وقوله : " **زبد** " مبتدأ مؤخر .

وفي قوله ﷻ : " **في النار** " : مع العلم بذلك في قوله " **توقدون**" تصوير للحاجة إلى الوقود الزائد على المعادن حتى تنصر .

وقال مكي[٣] وغيره : إن " **في النار**" متعلق بمحذوف في موضع الحال من الضمير المجرور بقوله " **عليه**" أي : ومما توقدون عليه ثابتاً في النار ومنعوا

---

(١) الطبري (١٣/١٣٤) بتصرف .

(٢) الكشاف (٢/٣٥٦) .

(٣) مكي بن حموش (٣٥٥ – ٤٣٧هـ) مكي بن حموش بن محمد بن مختار القيس الأندلسي (أبو محمد) مقرئ مجود للقرآن ، مفسر عالم بعلوم العربية ، من تصانيفه : الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره ، وأنواع علومه في سبعين جزءاً ، الرعاية في تجريد القرآن في أربعة أجزاء ، الكشف عن وجوه القراءات وعللها في عشرين جزءاً، توفى سنة ٤٣٧هـ . معجم المؤلفين (٣/١٣) ، وفيات الأعيان (١٢٠/٢)

تعليقه بقوله " **توقدون** " ؛ لأنهم زعموا أنه لا يوقد على شيء إلا وهو في النار ، وتعليق حرف الجر بـ " توقدون" يتضمن تخصيص حال من حال أخرى انتهى .

ولو قلنا أنه لا يوقد على شيء إلا وهو في النار لجاز أن يكون متعلقا بـ "توقدون " ، ويجوز ذلك على سبيل التوكيد ، كما قالوا[١] في قوله ﷻ : " **يطير بجناحيه**"[٢] ؛ إذ الطائر لا يطير إلا بجناحيه ، ولكن ذكر اللفظ توكيداً .

" **ابتغاء حلية أو متاع**" :

الحلية : ما يتحلى به الإنسان من الذهب والفضة وغيرهما .

المتاع : ما يتمتع به في حياته من الأوانى والآلات المتخذة من الحديد والرصاص وأشباههما .

وقوله ﷻ : " **ابتغاء**" : انتصب على أنه مفعول لأجله ، وقال الحوفي : " هو في موضع الحال ، أي : مبتغين حلية "[٣].

والضمير في قوله : " **مثله** " يعود إلى الزبد في قوله ﷻ : " **زبداً رابياً** " .

والمعنى : وكما في المثل السابق في خروج الزبد وطرحه بعيداً عن الأشياء النافعة كذلك توقدون على المعادن – الجواهر – لصهرها ابتغاء صنع ما يتزينون به أو يتنعمون به في حاجاتهم المختلفة ، وفي هذه الحالة تبقون على النقي النافع منها ، وتطرحون الزبد الخبيث الذي يشبه زبد الماء في عدم النفع .

وقد شبه الله ﷻ في هذا المثل – الثاني – الحق وأهله في النقاء والنفع بالمعادن النافعة الباقية ، وشبه الباطل وأهله في الفناء وعدم النفع بخبيث الحديد الذي يطرحه كير الحداد ويهمله الناس .

---

(١) تفسير البحر المحيط (٣٧٣/٦، ٣٧٤) ، تفسير الآلوسي (٤٧٧/٨) .

(٢) سورة الأنعام : الآية (٣٨) .

(٣) تفسير البحر المحيط (٣٧٤/٦) .

ثم وضح الله ﷻ المقصود من ضرب الأمثال فقال ﷻ : " **كذلك يضرب الله الحق والباطل** " ، أي : مثل ذلك الذي أورده الله في المثلين السابقين يضرب الله الأمثال للحق والباطل .

والكلام على حذف مضاف ، والتقدير بضرب الله مثل الحق ومثل الباطل ، وسر الحذف الإنباء عن كمال التماثل بين الممثِل والممثَل به ، حتى لكأن المثل المضروب هو عين الحق وعين الباطل .

ثم شرع الله ﷻ في تقسيم المثل فقال : " **فأما الزبد**" من كل من السيل وما يوقدون ، وأفرد ولم يثن ، وإن تقدم زبدان لاشتراكهما في مطلق الزبدية فهما واحد باعتبار القدر المشترك . " **فيذهب جفاء** " : مرمياً به مطروحاً بعيداً ؛ لأنه لا نفع فيه .

قال الراغب : " يقال : أجفأت القدر زبدها ألقته ،إجفاء وأجفأت الأرض صارت كالجفاء في ذهاب خيرها . وقيل : أصل ذلك الواو لا الهمز . ويقال : جفت القدر وأجفت ، ومنه الجفاء ، وقد جفوته أجفوه جفوة وجفاءً "(١).

" **وأما ما ينفع الناس**" : أي من الماء الصافي الخالص من الغثاء والجوهر المعدني الخالص من الخبث .

" **فيمكث**" : يبقى . " **في الأرض**" : أي فيبقى فيها لينتفع الناس به .

وبدأ ﷻ في تقديم الزبد فقال : " **فأما الزبد فيذهب** ..." مع أنه متأخر في الكلام السابق ؛ لأن الزبد هو المنظور أولاً لأعين الناس ، أما الجوهر فهو مستتر خلفه ؛ لأنه هو الباقي النافع (٢).

---

(١) المفردات ص(٩٤) .

(٢) تفسير أبي السعود (١٥٨/٣) ، التفسير الوسيط المجلد السابع ص(٥١) ، تابع الجزء الثالث عشر أ د / محمد سيد طنطاوي .

أو لأنه جرت العادة في التقسيم أن يبدأ بالمتأخر كما في قوله ﷻ:﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ** ﴾ (١).

وقوله : " **كذلك يضرب الله الأمثال** " .

أي : مثل ذلك الذي أورده الله في المثلين السابقين يضرب الله الأمثال لأنصار الحق وأنصار الباطل،وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل الذي اشتملت عليه الآية الكريمة .

قال الإمام الشوكاني : " هذان مثلان ضربهما الله ﷻ في هذه الآية للحق والباطل، يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه فإن الله ﷻ سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله ، كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ، وكخبث هذه الأجسام فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل .

وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض ، وكذلك الصافي من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه ، وهو مثل الحق .

وقال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر ؛ لأنها كلها تبقى منتفعاً بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به "(٢).

ثم وضح الله ﷻ عاقبة كل من أهل الحق وأهل الباطل ، فقال ﷻ : "**لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** " .

(١) سورة آل عمرن : الآية (١٠٦) .
(٢) تفسير فتح القدير (٨٥/٣) .

" **لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى** " :

أي : المؤمنين الذين أجابوا دعوته فيما دعاهم إليه من عقيدة وشريعة والإجابة تكون بحسب الطلب ، فإجابة طلب القول تكون بالقول ، وإجابة طلب الفعل تكون بالفعل وهكذا [١].

" **الحسنى**" : مؤنث أحسن (أفعل التفضيل) وهي صفة لموصوف محذوف للإيجار وليذهب الذهن كل مذهب كريم .

والحسنى هي المثوبة الحسنى التي هي أحسن ما يوصف بالحسن[٢].

وتكون مثوبة المستجيبين لربهم معجلة في الدنيا ومؤجلة إلى ما بعد الموت ، والمؤجل منها قسم منه يكون في البرزخ ، وقسم آخر منه يكون في موقف العرض والحساب، والقسم الأخير الأكمل يكون في الجنة[٣] ، وأقسام المثوبة كلها تدخل في عموم قوله ﷻ : " **لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى** " .

والمعنى : أن الله أعد المثوبة الحسنى ، والجزاء الحسن للذين أطاعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه .

" **والذين لم يستجيبوا له** " : وهم الكفار وعاندوا الحق الواضح ولم ينقادوا لأوامره ونواهيه .

" **لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً** " : من أصناف الأموال ولهم أيضاً " **مثله معه لافتدوا به** " أي لبذلوه فداء أنفسهم مما تستحق من عذاب الله يوم القيامة .

فاسم الموصول مبتدأ،والشرطية يعني : " **لو أن لهم ما في الأرض**"

---

(١) تفسير أبي السعود (١٥٩/٣) .

(٢) تفسير القرطبي (٣٥٣٥/٤) بتصرف .

(٣) تفسير الطبري (٩٣/١٣) .

خبر المبتدأ ، لكن لا على أنها وضعت موضع السوء ، أي فوقعت في مقابلة الحسنى الواقعة في القرينة الأولى لمراعاة حسن المقابلة ، فصار كأنه قيل : والذين لم يستجيبوا له السوأى أي كما توهم، فإن الشرطية وإن دلت على كمال سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوأى أي مصحوباً باللام الداخلة على الموصول أو ضميره ، وعليه يدور حصول المرام ، وإنما الواقع في تلك المقابلة سوء الحساب في قوله ﷻ : " **لهم سوء الحساب** " .

وحيث كان اسم الإشارة الواقع مبتدأ في هذه الجملة عبارة عن الموصول وهو " **والذين**" الواقع مبتدأ في الجملة السابقة ، كان خبرها أعني الجملة الظرفية خبراً عن الموصول في الحقيقة ومبيناً لإبهام مضمون الشرطية الواقعة خبراً عنه أولاً؛ ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل : والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب ، وذلك في قوة أن يقال : وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده ، ثم بين مؤدى ذلك فقيل : " **ومأواهم**" أي مرجعهم " **جهنم** " إشعار بتفسير الحسنى بالجنة لانفهامها من مقابلتها(١).

" **جهنم**" : اسم علم من أسماء النار التي أعدها الله ليعذب بها الكافرين المعاندين والعصاة، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث.

وبعض اللغويين يرون لفظ جهنم أعجمياً ، فقيل : فارسي معرب ، وقيل : عبري وأصله بالعبرانية كهنام ، وعلى هذا فالمانع له من الصرف العلمية والعجمة .

" **وبئس المهاد** " : أي بئس المستقر الذي يستقرون فيه .

(١) تفسير أبي السعود (١٥٩/٣) ، تفسير القاسمي محاسن التأويل . تأليف جمال الدين القاسمي (٣٥٦/٩) ط / دار الفكر .

والمخصوص بالذم محذوف ، أي : ومهادهم أو جهنم ، وأطلق على مكانهم في جهنم مهاد على سبيل التهكم ؛ لأن الشيء الممهد المفروش لهم في النار إنما هو العذاب الشديد وليس هذا من التمهيد ولا التوطئة ، ولكنه عكس ذلك(١).

والمعنى : والذين كفروا إذا لم يستجيبوا لربهم سيشهدون عذاباً ويكون حالهم كما يلي :

أولاً : لو كانوا يملكون ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ، أي : لقدموه فداء أنفسهم مما استحقت من عقاب ، ويبدأ هذا من بدء فترة البرزخ بين الموت والبعث ؛ إذ يشهدون فيها مصيرهم ، وينالون فيها من العذاب ما الله به عليم .

ثانياً: أولئك لهم سوء الحساب؛ إذ يحاسبون يوم القيامة حساباً سيئاً شديداً عسيراً .

ثالثاً: ومأواهم جهنم وبئس المهاد ؛ إذ يكون فيها مستقرهم الآخر ، فتأوون إليها قهراً وقسراً ، ويستقرون منها في مكان هيئ لعذابهم ، وبئس المهاد الذي أعد لهم ليأووا إليه مهادهم في دار العذاب(٢).

القراءات القرآنيـــة :

قرأ جمهور الناس " **بقَدَرها** " بفتح الدال ، وقرأ الأشهب العقيلي " **بقدْرها**" بسكون الدال ، واختلفوا في " **ومما يوقدون عليه** " فقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالغيب " **يوقدون**" وقرأ السبعة وأبو جعفر

والأعرج وشيبة " **توقدون**" بتاء الخطاب ، وقرئ " **جفالاً** " باللام بدل الهمزة ، وهو بمعنى متفرقاً أيضاً(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٩٣/١٣) .

(٢) سورة الرعد دراسة أدبية ولغوية ص(١٥٧) .

(٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢٩٧/٢، ٢٩٨) ، إتحاف فضلاء البشر (١٦١/٢، ١٦٢) .

المعنـى العـام :

في هاتين الآيتين ضرب الله ثلاثة أمثلة للحق والباطل :

ففي الآية الأولى : وضح الله ﷻ أنه أنزل من السماء والسحب ماء إلى الأرض فجرى هذا الماء في الأودية والأنهار بحكمة الله الذي تفضل فجعله مقداراً ينفع ولا يضر ، وهذا دليل على قدرة الله ورحمته.

ثم ذكر أن هذا الماء النافع يحمل غثاء وزبداً وخبثاً يطفو على وجهه ويعلو فوق سطحه منتفخاً رابياً ، ولكنه لا يلبث أن يضمحل ويذهب غير منتفع به ، فكذلك الحق والباطل : الحق كالماء الصافي ، والباطل كالزبد والغثاء الذي لا فائدة فيه ، ولا منفعة .

وكذلك ذكر الله أن من المعادن النفيسة ما يصهره الناس في النار كالذهب والفضة لكي ينقوه من الشوائب غير النافعة فيستخلصون من الذهب والفضة حلياً وزينة وأما ما فيهما من الخبث فيبقى غير منتفع به وكذلك شأن الباطل الزاهق وشأن الحق النافع.

وأما المثل الثالث بهو للحق النقي وللباطل الزائف الذي يذهب جفاء غير نافع ولا مفيد ، وهذا ينطبق على المعادن التي توقد عليها النار لتصهر وتنقى وتنظف من الشوائب، ونستخلص منها أنواع المتاع المختلفة من الآلات الصناعية والزراعية والحروب وغير ذلك .

قال الإمام الآلوسي : " وحاصل الكلام أنه ﷻ مثل الحق وهو القرآن العظيم عند الكثير في فيضانه من جانب القدس على قلوب خالية متفاوتة الاستعداد .

وفي جريانه عليها ملاحظة وحفظاً وعلى الألسنة مذاكرة وتلاوة مع كونه ممداً لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السنية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في أودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلاناً مقداراً بمقدار اقتضته الحكمة في إحياء الأرض وما عليها الباقي فيها حسبما يدور عليه منافع

الناس ، وفي كونه حلية تتجلى بها النفوس وتصل البهجة الأبدية ومتاعاً يتمتع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التي يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات، وتبقى منتفعاً بها مدة طويلة ، ومثل الباطل الذي ابتلى به الكثرة ؛ لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما ، وإخلال بصفائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحل سريعاً " [1].

روى البخاري بسنده عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : " **مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقيه قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت الكلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعلَّمَ ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به** "[2].

ثم ذكر الله في الآية الثانية عاقبة كل من الذين استجابوا للحق وآمنوا به فبين أن لهؤلاء المثوبة التي هي أحسن مثوبة .

ويذكر الجزاء الذي أعده للذين لم يستجيبوا للحق ولم يؤمنوا به فبين أن جزاءهم هو دار العذاب المقيم فذلك مسكنهم ومستقرهم الذي يصيرون إليه .

(١) تفسير الآلوسي (٤٧٩/٨، ٤٨٠) .

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب : العلم – باب : فضل من علم وعلم (٢١١/٣) حديث رقم (٧٩) .

مدح أولي الألباب وجزاؤهم

******

قال ﷻ : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ .

علاقة الآيات بما قبلها :

لما ضرب الله ﷻ الأمثال في الآيات السابقة للحق والباطل أوضح في هذه الآيات عن طريق الاستفهام الإنكاري أن تكون هناك مماثلة بينها ، وبين أن الذي يتوهم المماثلة بأنه أعمى لأن بصيرته لا تقوده إلى الهدى ، وبين بأن الذين يتذكرون هم أولوا الألباب ، ثم وضح في هذه الآيات صفاتهم وجزاءهم ، وصفات نقيضهم وجزاءهم .

فقال ﷻ :" **أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى** " الآية الكريمة تنفي وتنكر على من يتوهم مساواة الذين علموا الحق الذي أنزله الله ﷻ إلى رسول الله ﷺ فاتبعوه بمن جهلوه وأعرضوا عنه وصموا آذانهم عن سماعه .

تفسير الألفاظ وتحليلها :

" **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى**" :

الاستفهام للاستنكار والاستبعاد ، وهو بمعنى النفي أي لا يستويان.

وقيل : إن المراد بـ "**من يعلم** " حمزة ﷺ أو عمار ﷺ ، والمراد بـ " **الأعمى**" أبو جهل لعنه الله [١].

وحمل الآية على العموم أولى ؛ لأن اللفظ عام والعبرة بعموم اللفظ.

قال الإمام الرازي : " فهذه إشارة إلى المثل المتقدم ذكره ، وهو أن العالم بالشيء كالبصير ، والجاهل به كالأعمى ، وليس أحدهما كالآخر؛ لأن الأعمى إذا أخذ يمشي من غير قائد ، فالظاهر أنه يقع في البئر وفي المهالك وربما أفسد ما كان على طريقه من الأمتعة النافعة ، أما البصير فإنه يكون آمناً من الهلاك والإهلاك[٢].

ويقول الإمام الغزالي : " إن الله الذي أبدع هذا العالم لم يلق مفاتيح إبداعه للبله والحمقى ، وإنما ألقاها للعالمين الأذكياء[٣].

وقوله : " **إنما يتذكر أولوا الألباب** " .

" **الألباب** " : جمع لب وهو الخالص من كل شيء .

أي : إنما يعتبر ويتعظ وينتفع بالتذكر أصحاب العقول السليمة النقية الذين يتجاوزون القشرة إلى اللب وهم المؤمنون الصادقون .

فهذا مدح لأصحاب العقول السليمة الذين انتفعوا بالتذكير وآمنوا به ، وبيان أن سبب إعراض الكافرين عن الحق أنهم ليسوا أهلاً للتذكر .

وهذه الآية كقوله ﷻ : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [٤].

---

(١) تفسير القرطبي (٣٥٣٦/٥) ط / دار الشعب .

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣٠/١٧، ٢٣١) .

(٣) نظرات في القرآن للشيخ / محمد الغزالي ص(١١٢) ط / نهضة مصر.

(٤) سورة الحشر : الآية (٢٠) .

ثم مدح الله ﷻ أصحاب العقول السليمة فقال : " **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق**" .

و " **عهد الله** " : فرائضه وأوامره ونواهيه .

قال البيضاوي: "ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى"(١).

و " **العهد** " : اسم للجنس ، أي : جميع العهود وهي الأوامر والنواهي التي نهى عنها عبيده .

و " **الذين يوفون**" : مبتدأ ، قوله : " **أولئك لهم عقبى الدار** " ، أو يدل من أولى الألباب أو نعت له ، فالمراد بهم ما يشمل جميع الأمم .

وإضافة ﷻ العهد إلى ذاته للتشريف وللتحريض على الوفاء به(٢).

و " **ينقضون**" : من النقض وهو ضد الإبرام ، يقال : نقض البناء إذا نثر عقده، ونقض الحبل إذا حله ، ونقض العقد إذا نثر حباته .

و " **الميثاق**" : العهد الموثق باليمين للتقوية والتأكيد ، وهو مأخوذ من الوثاق، وهو في الأصل حبل أو قيد يشد به الأسير، قال ﷻ : ﴿ **فَشُدُّوا الْوَثَاقَ** ﴾ (٣).

وبدأ ﷻ صفات أولى الألباب بذكر الوفاء بالعهد وعدم النقض للمواثيق ؛ لأن هذه الصفة تدل على كمال الإيمان، وصفاء النفس، وصدق العزيمة ، وكمال الإخلاص .

فالمعنى : إنما يتذكر أولوا الألباب الذين وصفهم الله ﷻ بأنهم يؤمنون بعهد الله ولا ينقضون شيئاً من المواثيق والعهود التي التزموا بها أمام الله من أوامره ونواهيه، والذين التزموا بها مع أنفسهم كالنذور ونحوها .

---

(١) تفسير البيضاوي (١٣٩/٣) .

(٢) التفسير الوسيط للإمام الأكبر أ د / محمد سيد طنطاوي ، المجلد التاسع الجزء الثالث عشر ص(٥٥) .

(٣) سورة محمد : الآية (٤) .

وجملة " **ولا ينقضون الميثاق** " : تعميم بعد تخصيص تشمل عهودهم مع الله ﷻ ومع غيره من عباده .

ثم ذكر الله ﷻ صفات أخرى لهم ، فقال : " **والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** " ، أي : من صفات أولي الألباب أنهم يصلون كل ما أمر الله ﷻ من الرحم ، وموالاة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء المجمعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس ، بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الهر والدجاج [١].

" **ويخشون ربهم** " : أي يخافون الله ﷻ خوف تعظيم وإجلال مما يحملهم على امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

" **ويخافون سوء الحساب**" : أي ويخافون أن يناقشوا الحساب ، وفي رواية : " ومن نوقش الحساب هلك "[٢].

فهو يخافون أهوال يوم القيامة وما فيها من حساب عادل دقيق فيحملهم هذا على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

قال الإمام الآلوسي : وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام.

وفرق الراغب بين الخشية والخوف فقال : "الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ؛ ولذلك خص العلماء بها في قوله : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [٣] "[٤].

وقال بعضهم: الخشية أشد الخوف ؛ لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية ، أي: يابسة ؛ ولذا خصت بالرب في هذه الآية .

---

(١) تفسير أبي السعود (١٦٠/٣) .

(٢) صحيح البخاري (٢٠٨/٦) ، صحيح مسلم (٢٢٠٤/٤، ٢٢٠٥) .

(٣) سورة فاطر : الآية (٢٨) .

(٤) يراجع : المفردات ص(١٤٩) .

ثم قال الآلوسي : " والحق أن هذه الفروق أغلبي لا كلي ؛ ولذا لم يفرق كثير بينهما "[1].

وكذلك من صفات أولى الألباب أيضاً قوله ﷻ : " **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** " .

" **الصبر** " : هو حبس النفس على مقتضى الشرع والعقل . أي: أن من صفاتهم أنهم حبسوا أنفسهم على طاعة الله فأدوها كما ينبغي ، وصبروا على الرذائل وعن المعاصي ، وعن اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا الصبر غايته رضا الله خالصاً له لا لجزاء وسمعة ولم يكن من أجل الرياء أو المجاملة وغير ذلك ، وإنما كان من أجل رضا الله وطلب ثوابه .

وهذه الآية اشتملت على صفات أربع لأولي الألباب ، ثم إن الإنسان قد يقدم على الصبر ؛ لوجوه :

١ –أن يصبر ليقال : ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل.

٢ –أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع .

٣ –أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء .

٤ –أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : " **والذين صبروا** " فيما يُصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف، "**ابتغاء وجه ربهم** " لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل ، وأوقره عند الزلازل ، ولا لئلا يعاب بالجزع ولئلا يشمت به الأعداء كقوله :

(١) تفسير الآلوسي (٨/٤٩٧، ٤٩٨) .

وتجلدي للشامتين أريهم ∴ أني لريب الدهر لا أتزعزع

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ، ولا مرد فيه للغائب .... وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوي منها ما به كان حسناً عند الله ﷻ ، وإلا لم يستحق به ثواباً ، وكان فعلاً كلا فعل(١).

" **وأقاموا الصلاة** " : أي أدوا الركن الثاني من أركان الإسلام وهي الصلاة في أوقاتها كاملة مستوفاة لما يطلب لها من شروط وواجبات بخشوع وإخلاص .

وأفردهما الله ﷻ بالذكر تنبيهاً على كونها من أشرف العبادات ، ثم تذكر الآية الكريمة صفة أخرى من صفات أولي الألباب ، فيقول الله ﷻ: " **وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية** " أي بذلوا بسخاء وطيب نفس بعض ما أعطاهم الله في وجوه الاتفاق المشروعة وجوباً كالزكاة وندباً
كالصدقات المندوبة وغير ذلك .

" **سراً وعلانية** " : أي ينفقون مال الله الذي رزقهم به سراً ، حيث يحسن السر كإعطاء من لم يتعود الأخذ من غيره ، وينفقون " **علانية**" حيث تحسن العلانية كأن يكون في مجال التنافس في الخير ليقتدى بهم غيرهم .

قال الحسن : المراد الزكاة المفروضة ، فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أداؤها سراً ، وإن اتهم بترك الزكاة فالأولى أداؤها في العلانية.

وقيل : السر ما يؤديه بنفسه والعلانية ما يؤديه إلى الإمام .

٣-وقال آخرون : بل المراد الزكاة الواجبة والصدقة التي يؤتي بها على صفة التطوع ، فقوله " **سراً** " يرجع إلى التطوع ، وقوله ﷻ : "**وعلانية** " يرجع إلى الزكاة الواجبة ، قال ﷻ : ﴿ **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** * ﴾ (٢).

(١) تفسير الكشاف (٣٥٧/٢) بتصرف .
(٢) سورة المعارج : الآيتان (٢٤، ٢٥) .

وأما قوله ﷻ : " **ويدرءون بالحسنة السيئة**" :

الدرء : الدفع والطرد . يقال : درأه درءاً إذا دفعه ، أي : أن من صفات أولي الألباب – أيضاً – كما قال الإمام القرطبي : قال ابن عباس : يدفعون بالعمل الصالح الشيء من الأعمال كما في قوله ﷺ : "**أتبع السيئة الحسنة تمحها** " .

وقال ابن زيد : يدفعون الشر بالخير .

وقال سعي بن جبير : يدفعون المنكر بالمعروف .

وقال الضحاك: يدفعون الفحش بالسلام، وقيل : يدفعون الظلم بالعفو.

وقيل : يدفعون الذنب بالتوبة .

وقال القتيبي : يدفعون سفه الجاهل بالحلم ، فالسفه السيئة والحلم الحسنة ، وقيل : إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا ، وقيل : يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله ، وهذه القوال معناها متقارب ، والأول يتناولها بالعموم .

ومنه قوله ﷻ : " **إن الحسنات يذهبن السيئات** " ، روى أن هذه الآية نزلت في الأنصار ، ثم هي عامة بعد ذلك في كل من اتصف بهذه الصفات .

وعن أبي ذر ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : " **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** "[1].

وقوله ﷻ : " **أولئك لهم عقبى الدار**" .

هذا هو الجزاء الحسن الذي أعده الله للموصوفين بالصفات المتقدمة.

والعقبى : مصدر كالعاقبة وهي الشي الذي يقع عقب شيء آخر .

والمراد بالدار : الدنيا ، وعقباها : الجنة .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب : البر والصلة – باب : ما جاء في معاشرة الناس (٣٩٨/٣) حديث رقم (١٩٩٤) .

وقيل: المراد بالدار : الدار الآخرة ، وعقباها : الجنة للمطيعين ، والنار للعصاة .

وقال القرطبي : " الدار غداً داران : الجنة للمطيع ، والنار للعاصي"(١).

وهذه الجملة الكريمة خبر عن " **الذين يوفون بعهد الله** " وما عطف عليها .

أي : إن هؤلاء الذين أكرمهم الله وأعلى شأنهم لهم العاقبة الحسنة في الدار الآخرة، أو لهم الجنة عاقبة ، بدلاً من دار النار ، أو لهم بدل دار الدنيا الجزاء العظيم في الآخرة .

قوله ﷻ : " **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ** " .

قوله ﷻ : " **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** " .

هذا تفسير للمنزلة العالية التي أعدها الله ﷻ لهم " **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** " ، والعدن : الإقامة ، أي جنات إقامة يدخلون فيها .

" **يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ** " : أي يدخلون تلك الجنات، وإتماماً للنعمة عليهم يلحق بهم من صلح من أهليهم ، وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تعظيماً لشأنهم ، وهذا مصداقا لقوله ﷻ : ﴿ **هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** ﴾ (٢). وقوله ﷻ : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ (٣).

قال الإمام ابن كثير : " وقوله : ﴿ **وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ** ﴾ أي : يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، وممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ؛ لتقر أعينهم بهم،

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٣٥٤٠) .

(٢) سورة يس : الآية (٥٦) .

(٣) سورة الطور : الآية (٢١) .

حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل امتناناً من الله وإحساناً كما قال ﷻ : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾ " [١].

قال الواحدي : والصحيح ما قال ابن عباس ؛ لأن الله ﷻ جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة ، وذلك يدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتي بالأعمال الصالحة ، ولو دخلوها بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به ؛ إذ كل من كان مصلحاً في عمله فهو يدخل الجنة .

واعلم أن هذه الحجة ضعيفة ؛ لأن المقصود بشارة المطيع بكل ما يزيده سروراً وبهجة ، فإذا بشر الله المكلف بأنه إذا دخل الجنة فإنه يحضر معه آباؤه وأزواجه وأولاده ، فلاشك أنه يعظم سرور المكلف بذلك وتقوى بهجته به ، ويقال : إن من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم في الدنيا ثم يشكرون الله على الخلاص منها والفوز بالجنة ؛ لذلك قال ﷻ في صفة أهل الجنة إنهم يقولون : ﴿ **يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ *** ﴾ [٢].

وقوله ﷻ :"**وأزواجهم**": ليس فيها ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه .

وما روى عن سودة أنه لما هم الرسول ﷺ طلاقها قالت : دعني يا رسول الله أحشر في زمرة نسائك ، كالدليل على ما ذكرناه[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٧٣/٤) ، ط / دار الشعب بالقاهرة .

(٢) سورة يس : الآيتان (٢٦، ٢٧) .

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٢٣٨/١٧) .

واختلف في المرأة ذات الأزواج إذا كانوا قد ماتوا عنها ، فقيل : هي في الجنة لآخر أزواجها ، ويؤيده كون أمهات المؤمنين زوجاته ﷺ معه فيها مع كون أكثرهن قد تزوجن قبل بغيره ﷺ .

وقيل : هي لأول أزواجها كامرأة أخبرها ثقة أن زوجها قد مات ، ووقع في قلبها صِدْقه ، فتزوجت بعد انقضاء عدتها ، ثم ظهرت حياته فإنها تكون له ، وتعقب بأن هذا ليس من هذا القبيل بل هو يشبه ما لو مات رجل وأخبر معصوم كالنبي بموته ، فتزوجت امرأته بعد انقضاء العدة ، ثم أحياه الله ﷻ وقد قالوا في ذلك : إن زوجته لزوجها الثاني ، وقيل : إن الزوجة تخير يوم القيامة بين أزواجها فمن كان منهم أحسن خلقاً معها كانت له وارتضاه جمع(١).

وقوله ﷻ : " **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم**".

أي : وتدخل عليهم الملائكة من كل باب من أبواب منازلهم في الجنة مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من الإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء قائلين لهم: "**سلام عليكم** " أي : أمان دائم عليكم ، وهذا تحية وتكريماً لهم .

" **بما صبرتم** " : بسبب أو بدل صبركم على الطاعة وعن المعصية على ما قدر وقضى .

عن أبي عمران : بما صبرتم على دينكم. وعن الحسن : عن فضول الدنيا ، وعن محمد بن النضر : على الفقر ، والتعميم أولى ، وتخصيص الصبر بالذكر من بين العلات السابقة لما أنه ملاك الأمر والأمر المعتنى به كما سبق .

" **فنعم عقبى الدار**" : أي : فنعم عاقبة الدنيا الجنة ، وقيل : المراد بالدار الآخرة ، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة المقام عليه ، أي : الجنة .

(١) روح المعاني (٨/٥٠٣، ٥٠٤) .

أخرج أحمد والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن عبدالله بن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " **أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : اءتوني فحيوهم ، فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا ان نأتي هؤلاء فنسلم عليهم ، قال الله : إن هؤلاء عبادي كانوا يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾** "(١).

وفي قوله ﷻ : " **يدخلون عليهم من كل باب** " : إشارة إلى كثرة قدوم الملائكة عليهم ، وإلى كثرة أبواب بيوتهم تكريماً وتشريفاً وتأنيثاً لهم ، وجملة " "**سلام عليكم** " مقول لقول محذوف ، وهو حال من فاعل يدخلون وهم الملائكة ، وهي بشارة لهم بدوام السلامة .

وفي قوله: " **بما صبرتم** " إشارة إلى أن صبرهم على مشاق التكاليف وعلى الأذى ، وعلى كل ما يحمد فيه الصبر كان على رأس الأسباب التي أوصلتهم إلى تلك المنزلة .

القراءات القرآنية :

قرأ الجمهور : " **جنات عدن**" ، والنخعي : " **جنة** " بالإفراد .

وروى عن ابن كثير وأبي عمرو : " **يُدْخلونها**" مبنياً للمفعول .

وقرأ ابن أبي عبلة : " **ومن صلُح** " بضم اللام ، والجمهور بفتحها ، وهو أفصح، وقرأ عيسى الثقفي : " **وذريتهم** " بالإفراد والجمهور بالجمع.

(١) أخرجه الإمام أحمد في " مسنده" (١٦٨/٢) ، وصححه الحاكم (٧١/٢) ، ووافقه الذهبي .

وقرأ ابن يعمر ويحيى بن وثاب : " **فَنِعِمَ** " بفتح النون وكسر العين وهي الأصل ، وقرأ ابن وثاب : " **فَنَعْمَ** " بفتح النون وسكون العين وتخفيف فعل لغة تميمية ، والجمهور " **نِعْم** " بكسر النون وسكون العين وهي أكثر استعمالاً [١].

المعنى العام :

في هذه الآيات يقرر الله ﷻ أنه لا يتساوى المؤمن الذي أطاع ربه وآمن بوحي الله وكتابه المنزل على النبي ﷺ لا يتساوى هؤلاء بمن طبع الله على قلوبهم ، فعميت بصائرهم عن الحق .

ثم بعد ذلك يذكر الله صفات هؤلاء الذين يعرفون الحق ويتمسكون به ويقرر لهم عشر صفات :

الأولى : أنهم يقبلون التوجيه والرشد والموعظة الحسنة : ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ ، وقال أيضاً : ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ [٢].

الثانية : أنهم أوفياء بما عاهدوا الله عليه : ﴿ **وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ [٣].

قال ابن عطية : قوله : " **بعهد الله** " اسم للجنس ، أي : بجميع عهود الله وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده ، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي[٤].

الثالثة : أنهم لا يحلون ما أبرموه من عقود ومواثيق مع الله أو مع عباده .

الرابعة : الذين ينفذون أمر الله بوصل كل ما بوصله من الأعمال الصالحة، يقول ﷻ : " **والذي يصلون ما أمر الله به أن يوصل** " .

الظاهر العموم في كل ما أمر الله ﷻ به في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ .

---

(١) تفسير البحر المحيط (٣٨٢/٦) ، تفسير ابن عطية (٣١٠/٣) .

(٢) سورة الزمر : الآية (١٨) .

(٣) سورة الفتح : الآية (١٠) .

(٤) تفسير ابن عطية (٣٠٩/٣) .

وقال القرطبي : " ١-ظاهر صلة الأرحام ، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين ، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات .

٢-وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : معنى " **يصلون ما أمر الله به**" الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم .

٣-وقال الحسن : هو صلة محمد ﷺ بالإيمان به .

٤-وقيل : صلة الإيمان بالعمل الصالح "[١].

ولكن الظاهر العموم في كل ما أمر الله ﷻ به .

الخامسة والسادسة : ومن صفات أولي الألباب أنهم كما قال ﷻ : "**ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب** " ، فهم يخافون أن يحاسبهم الله ويناقشهم ، فإن من نوقش الحساب عُذِّب .

وقيل : المراد وعيده ﷻ على قطع ما أمروا بوصله مع أنهم يخافون من الله خوف إجلال وتعظيم ، فهو " **يخافون سوء الحساب** " وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام ؛ للاهتمام به ؛ ولذا يجب أن نفرق بين الخشية والخوف :

١-فرق الراغب الأصفهاني بينهما فقال : " الخشية خوف يشوبه تعظيم،وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه؛ ولذلك خص العلماء بها في قوله ﷻ : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[٢] " [٣].

٢-وقال بعضهم : الخشية أشد الخوف ؛ لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية ، أي : يابسة ؛ ولذا خصت بالرب في هذه الآية .

---

(١) تفسير القرطبي (٣٥٣٩/٥) .

(٢) سورة فاطر : الآية (٢٨) .

(٣) المفردات ص(١٤٩) .

٣-وفرق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخشى ، وإن كان الخاشي قوياً والخوف من ضعف الخائف ، وإن كان المخوف أمراً يسيراً يدل ذلك على أن تقاليب الخاء والشين والياء تدل على الغفلة وفيه تدبر .

والحق أن مثل هذه الفروق أغلبي لا كلي؛ولذا لم يفرق كثير بينها(١).

روى البخاري بسنده عن عائشة عن النبي ﷺ قال : " **من نوقش العذاب عذب** قالت : قلت أليس يقول الله ﷻ : ﴿ **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً** ﴾ (٢) قال : **ذلك العرض** "(٣).

"**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** " .

هذه الآية اشتملت على أربع صفات لأولي الألباب ، وقد بين القرآن الكريم أن الله ﷻ أعطى الصابرين أجرهم بغير حساب، فقال ﷻ:﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ (٤).

قال صاحب " البحر المحيط " : " وجاءت الصلة هنا بلفظ الماضي ، وفي الموصلين قبل بلفظ المضارع في قوله : " **الذين يوفون** " و "**الذين يصلون** " وما عطف عليهما على سبيل التفنن في الفصاحة ؛ لأن المبتدأ هنا في معنى اسم الشرط بالماضي كالمضارع في اسم الشرط ، فكذلك فيما أشبهه ؛ ولذلك قال النحويون : إذا وقع الماضي صلة أو صفة لنكرة عامة احتمل أن يراد به المعنى،

---

(١) تفسير الآلوسي (٤٩٧/٨، ٤٩٨) .

(٢) سورة الانشقاق : الآية (٨) .

(٣) أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب : الرقاق – باب : من نوقش الحساب عذب (٤٠٧/١١) ح (٦٥٣٦) .

(٤) سورة الزمر : الآية (١٠) .

وأن يراد به الاستقبال ، فمن المراد به المعنى في الصلة : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ** ﴾ (١).

ومن المراد به الاستقبال : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِم** ﴾ (٢).

ويظهر أيضاً أن اختصاص هذه الصلة بالماضي وتينك بالمضارع أن تينك الصلتين قصد بهما الاستصحاب والالتباس دائماً ، وهذه الصلة قصد بها تقدمها على تينك الصلتين ، وما عطف عليها ؛ لأن حصول تلك الصلات إنما هي مترتبة على حصول الصبر وتقدمه عليها ؛ ولذلك لم تأت صلة في القرآن إلا بصيغة الماضي ؛ إذ هو شرط في حصول التكاليف(٣). والله أعلم .

أما قوله ﷻ : " **أقاموا الصلاة** " : فالمراد تأديتها في أوقاتها بخشوع وخضوع وتشمل الصلاة المفروضة ، ولا يمنع دخول النوافل فيها أيضاً وقد أفردها الله ﷻ بالذكر للتنبيه على أنها من أشرف العبادات ، وفي الحديث الذي ذكر فيه الرسول ﷺ السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : " **ورجل قلبه معلق بالمساجد** "(٤).

ثم تذكر الآية صفة أخرى لأولي الألباب فيقول ﷻ : " **وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية** " ، أي : أنهم أسخياء في البذل والعطاء مقدرين فضل الله ﷻ وعطاءه ويعلنون ذلك حينما يرجون أن يقتدى بهم ويسرون ذلك عند خوف الرياء .

---

(١) سورة آل عمران : الآية (١٧٣) .

(٢) سورة المائدة : الآية (٣٤) .

(٣) تفسير البحر المحيط (٦/٣٨٠) .

(٤) أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب : الرقاق – باب : البكاء من خشية الله (١١/٣١٨) ح (٦٤٧٩) .

فقولهﷻ : "**سراً**" يرجع إلى الصدقة التي يؤتى بها على صفة التطوع وقوله: " **علانية** " يرجع إلى الزكاة الواجبة ، قالﷻ : ﴿ **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** * ﴾ (١).

وكذلك من صفات أولي الألباب : أنهم دائما على الحسنة يدفعون بها السيئة في كل مقام بما يناسبه ، ويقرر في نهاية هذه الصفات أن لهم العاقبة الحسنى والأجر الأوفر في دار الثواب التي يصيرون إليها في الآخرة ، وبعد أن يغادروا دار الفناء الدنيا ، ويقرر أن هذه العاقبة الفضلى ذات مزايا ثلاث :

المزية الأولى : أنها باقية لا تفنى : ﴿ **عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾ (٢).

المزية الثانية : أنهم تتم سعادتهم وسرورهم بصحبة أحبابهم واجتماعهم معهم ومشاركتهم لهم في ذلك النعيم ما داموا قد ماتوا على الإيمان والعمل الصالح .

المزية الثالثة : أنهم يقابلون بالحفاوة والتكريم من الله الذي يرسل إليهم ملائكته ليبلغوهم سلامه وإكرامه لهم مرة بعد مرة ومن كل ناحية وباب .

(١) سورة المعارج : الآيتان (٢٤، ٢٥) .

(٢) سورة هود : الآية (١٠٨) .

الأشقياء وجزاؤهم

قال ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾ .

علاقة الآية بما قبلها :

لما ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة صفات الأتقياء وما لهم من المنازل العالية أتبع ذلك بذكر ما يقابله ، وهي صفات الذين لم يستجيبوا له وجزاؤهم ، فمن صفاتهم نقض العهود والمواثيق وقطيعة الأرحام ، وهجر العمل الصالح والفساد في الأرض " **والله لا يحب الفساد**" .

ثم أتبع هذه الصفات ببيان مالهم من الجزاء السيء المتمثل في الطرد من رحمة الله والانتهاء إلى العاقبة المقبوحة ﴿ **جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ**﴾ [1].

تفسير الألفاظ وتحليلها :

نقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به .

وقوله : " **من بعد ميثاقه** " : زيادة في تشنيع النقض ، أي : ينقضون عهد الله ﷻ ولا يوفون به من بعد التزامهم به وقبولهم له .

قال الإمام الفخر الرازي : " يمهد الله ما ألزم عباده بواسطة الدلائل العقلية والسمعية ؛ لأنها أوكد من كل عهد وكل يمين ؛ إذ الأيمان إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها .

والمراد من نقض هذه العهود : أن لا ينظر المرء في الأدلة أصلاً فحينئذ لا يمكنه العمل بموجبها أو بأن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعلمه أو بأن ينظر في الشبهة فيعتقد خلاف الحق .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية (٢٩) .

والمراد من قوله ﷻ : " **من بعد ميثاقه** " أي من بعد أن وثق الله تلك الأدلة وأحكمها ؛ لأنه لا شيء أقوى مما دل الله على وجوبه وفي أنه ينفع فعله ويضر تركه(١).

وقوله : " **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** " : أي : يقطعون كل ما أوجب الله ﷻ وصله ، ويدخل فيه الإيمان بجميع الأنبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض ، وكذلك وصل أولى الأرحام بالمودة والتعاطف ، فالآية الكريمة تبين حال هؤلاء الأشقياء بأنهم كانوا على الضد من أولئك الأوفياء الذين كانوا يصلون ما أمر الله بوصله .

وقوله : " **ويفسدون في الأرض** " .

هذه صفة ثالثة من صفاتهم الذميمة ، أي : أنهم كانوا يفسدون في الأرض عن طريق مخالفتهم لدعوة الحق ، وإثارة الحرب على المسلمين بتهييج الفتن عليهم وغير ذلك من الأمور التي حرمها الله ﷻ.

وقوله ﷻ : " **أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** " .

أي : أولئك الموصوفون بتلك القبائح " **لهم** " بسبب ذلك " **اللعنة** " أي: الإبعاد من رحمة الله .

" **ولهم** " مع ذلك " **سوء الدار** " أي سوء عاقبة الدار ، وتكرير "**لهم**" في الآية للتأكيد .

والمراد بـ " **الدار** " :

١-الدنيا وسوء عاقبتها عذاب جهنم أو جهنم نفسها .

ولم يقل : سوء الدار تفادياً حيث جعل العاقبة المطلقة هي الجنة .

٢-وجوز أن يراد بـ " **الدار** " جهنم وبؤسها وعذابها .

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٧/٢٤٠) .

والرأي الأول أوجه لرعاية التقابل ؛ لأن المتبادر إلى الفهم من الدار الدنيا بقرينة السابق ؛ ولأنها الحاضرة في أذهانهم ، ولما ذكر من النكتة السرية ؛ وذلك لأن ترتيب الحكم على الموصول يشعر بعلية الصلة له ، ولا يخفى أنه لا دخل له في ذلك على أكثر التفاسير فإن مجازاة السيئة بمثلها مأذون فيها ، ودفع الكلام السيء بالحسن ، وكذا الإعطاء عند المنع والعفو عند الظلم ، والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة[1].

(١) روح المعاني (٥٠٩/٨) .

الرزق على الله
والهداية لمن آمن بالله

******

قال ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ .

علاقة الآيات بما قبلها :

بعد أن وضحت الآيات السابقة سوء عاقبة الكفار مع مشاهدة الناس لما يتمتعون به في الدنيا ، أتبع ذلك ببيان أن متاع الدنيا قليل لا يذكر بجانب نعيم الآخرة ، وأن بسط الرزق وقبضه تكون بحكمة إلهية ، ولا تعلق له بالكفر والإيمان ، فقد يوجد كافر موسع عليه دون المؤمن ، ويوجد المؤمن مضيقاً عليه دون الكافر ، فالدنيا دار امتحان وابتلاء.

تفسير الألفاظ وتحليلها :

" **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** " .

بسط الرزق : كناية عن سعته ووفرته . " **لمن يشاء** " أي من عباده.

"**ويقدر** " قال صاحب " مختار الصحاح" : " قدر على عياله بالتخفيف مثل قتر ، ومنه قوله ﷻ : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُه**﴾ [(١)] "[(٢)].

ومعنى يقدر : أي يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك ، ولا شعور بحكمته ، فربما يبسط للكافر إملاءً

(١) سورة الطلاق : الآية (٧) .
(٢) مختار الصحاح ص(٢١٩) .

واستدراجاً ، وربما يضيقه على المؤمن زيادة لأجره ، فلا يغتر ببسطه الكافر كما لا يقنط بقدرة المؤمن .

وقيل : معنى " **يقدر**" : يعطي بقدر الكفاية .

ومعنى الآية : أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره(١). والآية على ما روى ابن عباس نزلت في أهل مكة ، ثم إنها وإن كانت كذلك عامة .

والضمير في قوله : " **وفرحوا بالحياة الدنيا** " يعود إلى مشركي مكة وإلى كل من كان على شاكلتهم في الكفر والطغيان .

والمراد بـ " الفرح " هنا : الأشر والبطر وجحودهم النعم .

بـ " **الحياة الدنيا** " وما بسط لهم فيها من نعيمها . أي : أن هؤلاء الكفار فرحوا فرح بطر وأشر بهذه الحياة العاجلة الفانية الزائلة لا فرح سرور بنعم الله وشكر له ﷻ ليفوزوا بنعيم الآخرة .

وقوله ﷻ : " **وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع** " : هذا بيان لقلة نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة .

والمتاع: كل شيء يتمتع به إلى أجل ثم ينتهي ويفنى،قال ﷻ : ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ** ﴾ (٢).

أي : إن هذه الدار الدنيا بكل ما فيها بجانب نعيم الآخرة شيء حقير يتمتع به تمتعاً قليلاً ثم يتلاشى ويذهب ، وتنكير " **متاع** " للتقليل ، كقوله ﷻ في آية أخرى: ﴿ **لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ (٣).

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٨٢/٣) .

(٢) سورة النساء : الآية (١٧٧) .

(٣) سورة آل عمران : الآية (١٩٧) .

وإعراب قوله : " **في الآخرة** " : الجار والمجرور في موضع الحال، والتقدير: وما الحياة القريبة كائنة في جنب الآخرة ، وليس متعلقاً بالحياة ولا بالدنيا(١).

" **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** " : توضح الآية ما طلبه كفار مكة من رسول الله ﷺ على سبيل الطغيان والمكابرة .

والمراد من الآية : آية كونية كإحياء الموتى ، وإزاحة الجبال من أماكنها . و " **لولا** " هنا حرف تحضيض بمعنى هلا .

أي : يقول الكافرون على سبيل الطغيان والجحود هلا أنزل على هذا الرسول علامة بينة واضحة تدل على صدقه كالعصا التي جاء بها موسى ، أو كأن يحيي لنا موتانا أو أن يحول جبل الصفا ذهباً ، أو كالناقة التي جاء بها صالح وغيرها من الآيات .

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم بقوله : " **قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب** " .

أي : قل لهم وأجبهم على ظلمهم هذا وعلى تكبرهم وعنادهم بأن الله يضل من يريد إضلاله ، ويرشد من يريد هدايته وإرشاده إلى الدين الحق حينما يرجع إليه ، وينيب إلى ساحته بنصوح التوبة وخالصها ، وقد تتوفر الآيات ولكن لا تحصل الهداية كما هو حاصل للمتعنتين ، فالآية متوفرة ولكنهم مصرون على الكفر .

والإنابة: الرجوع إلى الشيء بعد تردد،فقد جرت عادة كثير من النفوس البشرية أن يعرض عليها الحق فتتردد في قبوله أول الأمر ، ثم تعود إلى قبوله واعتناقه بعد قيام الدلائل على صحته وسلامته من الفساد(٢).

قال الزمخشري : " فإن قلت : كيف طابق قولهم : " **لولا أنزل عليه آية من ربه** " قوله : " **إن الله يضل من يشاء** " ؟

---

(١) إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري بهامش الفتوحات الإلهية (٣/٣٨٤).

(٢) التفسير الوسيط للإمام الأكبر أ د / محمد سيد طنطاوي ، المجلد السابع سورة الرعد ص(٦٥) .

قلت : هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات الباهرة والمتكاثرة التي أوتيها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبي قبله ، وكفر بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فإذا جحدوا ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعاً للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم ، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائهم ، وإن أنزلت كل آية " **يهدي إليه من** " كان على خلاف صفتكم . " **أناب** " : أقبل إلى الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير "[١].

" **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم ذكر الله** " : أي تسكن قلوبهم وتستقر بذكر رحمته استئناساً ورغبة إليه واعتماداً عليه ﷻ بعد خشيته والخوف من عذابه .

فالمراد بذكر الله ﷻ ذكر رحمته أو ذكر الدلائل والآيات الدالة على وجوده واتصافه بكل حال مثل الآيات السابق ذكرها .

أو المراد بذكر الله : القرآن الكريم فهو أعظم آية وأعظم ذكر ، وإطلاق الذكر على القرآن ورد في آيات ، منها : قوله ﷻ : ﴿ **وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** ﴾ [٢] ، وقوله ﷻ : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [٣].

ويصح أن يراد بذكر الله هنا ما يشمل القرآن الكريم ويشمل ذكر الخالق ﷻ باللسان بنية القلوب إلى مراقبته ﷻ كما يصح أن يراد به خشيته ﷻ ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه "[٤].

---

(١) تفسير الكشاف (٣٥٩/٢) .

(٢) سورة الأنبياء : الآية (٥٠) .

(٣) سورة الحجر : الآية (٩) .

(٤) التفسير الوسيط للإمام الأكبر أ د / محمد سيد طنطاوي ، المجلد السابع سورة الرعد ص(٦٦) .

إلا أن الأوضح هنا أن يراد به القرآن الكريم ؛ لأنه الأنسب للرد على المشركين الذين لم يكتفوا به كمعجزة دالة على صدقه ﷺ : "**وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه** ".

ثم إنه لا تنافي بين هذه الآية ، والآية الأخرى التي في سورة الأنفال : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم** ﴾ (١) ؛ لأنهم إذا ذكروا عقابه على المعصية خافوا ووجلت قلوبهم فاتقوه خوفاً ورهباً .

وإذا ذكروا رحمته وثوابه اطمأنوا وسكنت قلوبهم طمعاً في مغفرته واتقوه رغباً فهم بين الخوف والرجاء (٢).

وقوله ﷻ : " **ألا بذكر الله** " : " **ألا** " أداة استفتاح ، وهذا للتنبيه للاهتمام بمضمونها ، وللترغيب في الإكثار من ذكر الله ﷻ .

" **بذكر الله** " : يجوز أن تكون مفعولاً به ، أي : الطمأنينة تحصل لهم بذكر الله ، ويجوز أن يكون حالاً من القلوب ، أي : تطمئن وفيها ذكر الله .

والغرض من الفعل المضارع في قوله ﷻ : " **تطمئن**" مرتين في آية واحدة للإشارة إلى دوام الاطمئنان وتجدده ، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد .

القراءات القرآنية :

قرأ زيد بن علي ﷺ : " **ويقدر** " دون غيره ﷻ ، وقرأ أيضاً : "**ويقدُر** " بضم الدال حيث وقع .

المعنى العام :

يقرر الله ﷻ في الآية الأولى أنه هو الذي يوسع العطاء على من يشاء من عباده ويقبضه ويضيقه على من يريد له ذلك ، وهذا تبعاً لحكمته وإرادته وعدله فهو : ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ (١).

---

(١) سورة الأنفال : الآية (٢) .

(٢) سورة الرعد دراسة أدبية ولغوية وفكرية ص(٨٧) .

ويقرر أن الكفار يفرحون بسعة الرزق ويطغيهم ذلك، كما قال ﷻ :
﴿ **كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى *** ﴾ (٢).

فمن المعروف أن الرزق مهما اتسع وأن الدنيا وما فيها من بهجة وعطاء ورزق لا قيمة لها إذا قيست بعطاء الآخرة ، فما هذه الحياة الدنيا إلا متعة زائلة، قال ﷻ : ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾ (٣).

وهذه الآية تبين أن أهل مكة فرحوا بالحياة الدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عند الله من النعيم الدائم .

قال مجاهد : شيء قليل ذاهب من متع النهار إذا ارتفع فلابد له من زوال .

وقال ابن عباس : زاد كزاد الراعي . وقيل : متاع الحياة الدنيا ما يستمتع بها منها . وقيل : ما يتزود منها إلى الآخرة من التقوى والعمل الصالح .

وروى الترمذي بسنده عن عبيدالله قال : " **نام رسول الله ﷺ وقد أثر في جنبه فقلنا : يا رسول الله اتخذنا لك وطاء ، فقال : مالي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها** "(٤).

وفي الآية الثانية : يقرر الله ﷻ أن الكفار يكررون مطالبتهم للرسول ﷺ بالآيات المقترحة ويقول : إنهم لا يطلبون الآية لكي يهتدوا بها ،

لأن آيات الهداية الدالة على صدقه ﷺ كثيرة ، وكفى بكتاب الله المعجز آية ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى مكابرتهم وعنادهم ، كأن ما أنزل على الرسول ﷺ من الآيات العظام ليست عندهم آية .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية (٢٣) .

(٢) سورة العلق : الآيتان (٦، ٧) .

(٣) سورة النساء : الآية (٧٧) .

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب : الزهد – باب : ما جاء في أخذ المال (١٦٧/٤) حديث رقم (٢٣٨٤) . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وقد جرت سنة الله وحكمته أن يضل من يريد إضلاله ؛ لأنه مصر على باطله، ويهدي من يريد هدايته .

ثم تخبر الآيات أن المؤممين تطمئن قلوبهم وتأنس وتنشرح صدورهم بذكر ربهم لا بحطام الدنيا الذي يفرح له الكفار ، وأن الله ﷻ أعد لهم حسن الجزاء ، وأجمل العاقبة وأفضلها ، قال ﷻ : ﴿ **وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (١).

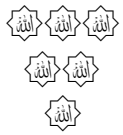

(١) سورة آل عمران : الآية (١٤) .

حسن العاقبة للمؤمنين
وبيان بعثة الرسول ﷺ

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ .

علاقة الآيات بما قبلها :

ما زال الحديث موصولاً عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فبين الله أن من تذكر واتعظ كان من أولى الألباب ، وأن الله أعد لهم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وإن الله أرسل الرسول ﷺ فمن تدبر ما جاء به من كتاب ووحي وأناب إلى الله كان له حسن العاقبة والمثوبة العظمى، ومن كفر بالرحمن وأنكر ألوهيته ووحدانيته وأصر على ذلك فله جزاء ما صنع من كفر وجحود وإصرار خاطئ .

تفسير الألفاظ وتحليلها :

قوله ﷻ : " **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ** ".

هذا ثواب أعده الله للمؤمنين الصادقين الذين جمعوا بين الإيمان والتصديق بما جاء به النبي ﷺ ، وبين العمل الصالح الذي يُرضي الله ﷻ .

" **طوبى لهم** " : أي حسنى لهم ونعمة وغبطة ، و " **طوبى** " مصدر كبشرى وزلفى من الطيب ، وأصله " طيبى" فقبلت الياء واواً لوقوعها ساكنة إثر ضمة ، كما قلبت في مومن وهو من اليقين واليسر .

قال ابن كثير ما ملخصه : " قوله : " **طوبى لهم** " قال ابن عباس : أي فرح وقرة عين لهم . وقال الضحاك : أي غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعي : أي خير لهم . وقال قتادة : طوبى : كلمة عربية ، يقول الرجل لغيره : طوبى لك ، أي : أصبت خيراً . وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس : " **طوبى لهم**" قال : هي أرض الجنة بالجشية . وقال سعيد بن مشجوج : "**طوبى**" اسم الجنة بالهندية .

وهكذا روى عن ابن عباس وأبي هريرة وغير واحد من السلف : أن طوبى شجرة في الجنة ، في كل دار في الجنة غصن منها "(١).

فكلمة " **طوبى**" : ابتداء ، و " **لهم**" : خبره ، وجاز الابتداء بطوبى؛ إما لأنها علم لشيء بعينه ، وإما لأنها نكرة في معنى الدعاء(٢).

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال : " **إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، واقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍ مَمْدُود ﴾** "(٣).

"**وحسن مآب**" : المآب : المرجع من آب يؤوب ، وهذه الجملة عطف على " **طوبى**" .

المعنى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات وصدقوا بما جاء به النبي ﷺ وكل ما يرضى الله ﷻ لهم في آخرتهم حسن العاقبة وخير كامل وعيش هانئ ومرجع حسن يرجعون به إلى ربهم وخالقهم .

وقوله ﷻ : " **كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ** " .

---

(١) راجع : تفسير ابن كثير (٣٧٦/٤) .

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل (٥٠٤/٢) .

(٣) أخرجه البخاري كتاب : التفسير – باب: وظل ممدود (٤٩٥/٨) ح(٤٨٨١).

أي مثل ذلك الإرسال العظيم المشتمل على المعجزة الباهرة والآية الصادقة، أرسلناك وبعثناك يا محمد في جماعة من الناس أو في قرن من الزمان ، قد سبقت بقرون وأزمنة أخرى فلست بدعاً من الرسل .

وإنما أرسلناك لتبين لهم وتقرأ على مسامعهم القرآن العظيم الذي أوحيناه إليك، ولتبين لهم ما اشتمل عليه من تشريعات ، كما بين الرسل السابقون لأقوامهم ما أمرهم الله ﷻ ببيانه .

فالكاف في قوله " **كذلك**" : للتشبيه ، حيث شبه ﷻ إرساله ﷺ إلى الناس بإرسال الرسل السابقين إلى أقوامهم .

واسم الإشارة يعود إلى الإرسال المأخوذ من فعل " **أرسلناك**" .

والمراد بالأمة هنا : أمة الدعوة التي أرسل إليها الرسول ﷺ فآمن من آمن من أفرادها ، وكفر من كفر .

وفي قوله ﷻ : " **قد خلت من قبلها أمم** " :

أي : في قرن قد خلت من قبله قرون ، أو في جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات .

و"**في**" بمعنى إلى كما في قوله ﷻ:﴿ **فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِم** ﴾ (١).

وقيل : هي على ظاهرها ، وفيه إشارة إلى أنه من جملتهم وناشئ بينهم ولا تكون بمعنى إلى ؛ إذ لا حاجة لبيان من أرسل إليهم ، وفيه نظر ظاهر ، وجملة " **قد خلت** " في محل جر صفة لأمة .

وفي هذه الجملة الكريمة تعريض بمشركي مكة ، وأنهم إذا ما استمروا في طغيانهم فسيصيبهم ما أصاب الأمم الخالية .

(١) سورة إبراهيم : الآية (٩) .

وقوله : " **لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك** " .

أي : لتقرأ عليهم وتبلغهم بالقرآن الذي أنزلناه إليك ، والذي أنزل إليك من ربك ، والمقصود منه : تفخيم شأن القرآن الكريم وأنه هو المعجزة الكبرى للرسول ﷺ ، وأن وظيفة الرسول ﷺ قراءته عليهم قراءة تدبر واستجابة لما يدعوهم إليه .

وجملة " **وهم يكفرون بالرحمن** " : حال ، أي : أرسلناك أيها الرسول إلى هؤلاء الضالين الذين لا يشكرون النعمة ولا يشكرون من أنعم بها عليهم ، والحال أنهم يكفرون بالرحمن ، أي العظيم الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء .

وفضل اختيار اسم الرحمن من بين أسمائه ﷻ للإشارة إلى أن إرساله ﷺ مبعثه الرحمة كما قال ﷻ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ (١).

وللرد عليهم في إنكارهم أن يكون الله ﷻ رحماناً ، فقد حكي القرآن عنهم ذلك في قوله ﷻ : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ**﴾ (٢).

وقد ثبت في الحديث الصحيح أنهم لم يرضوا بكتابة هذا الاسم الكريم في صلح الحديبية فعندما قال ﷺ : " **لعلي أكتب بسم الله الرحمن الرحيم**" قال أحد زعمائهم : ما ندري ما الرحمن الرحيم .

وقد أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يبطل كفرهم فقال: " **قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** " .

أي : قل لهم أيها الرسول الكريم : لا رب لي ولا خالق لي ولا سيد لي ولا مالك ولا رازق إلا الله ﷻ فكذلك لا معبود يستحق عبادتي وتوكلي إلا الله ﷻ .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية (١٠٧) .

(٢) سورة الفرقان : الآية (٦٠) .

وقوله ﷻ : " **لا إله إلا هو** " : هذا تقرير لتوحيد الألوهية والتعبد لله وحده بعدما سبق من توحيد الربوبية .

" **عليه توكلت** " : أي وضعت أموري كلها إليه لا إلى غيره . وقيل : المراد عليه توكلت في نصرتي عليكم [١].

" **وإليه متاب** " : وتوبتي ورجوعي إليه وحده لا إلى أحد سواه ، وفي هذا تعريض بالكفار وحث لهم على أن يرجعوا إلى الله بالإيمان والتوحيد والتوبة بعد الكفر والشرك والعصيان[٢].

فالجملة الكريمة اشتملت على أبلغ رد على أولئك المشركين الذين أنكروا أن يكون الإله ﷻ رحمانًا وأنه ﷻ هو المستحق للعبادة .

ثم بين لنا الله ﷻ عصمة هذا القرآن الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ فقال : "**وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**"

سبب نزول الآية :

روى أن أهل مكة طلبوا من النبي ﷺ أن يسير لهم الجبال فتمشي وتنتقل من أماكنها حتى ينفسح لهم المكان وتتسع لهم رقعة الأرض ليزرعوا فيها ، وأن يحيى لهم آباءهم الذين ماتوا ليكلموهم ويخبروهم بصدق محمد ﷺ ، وقالوا له ﷺ : لست بأهون على ربك من سليمان الذي سخرت له الريح ، ولا من موسى وعيسى ، فأنزل الله ﷻ : " **وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ .... "**[٣].

والمراد بالقرآن هنا : معناه اللغوي ، أي : الكلام المقروء ، وجواب لو محذوف لانسياق الكلام إليه بحيث يتلقفه السامع من التالي .

---

(١) التفسير المنير (١٣/١٦٨) .

(٢) فتح القدير (٣/٨٢) .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص(١٥٨) ، البحر المحيط (٥/٣٩١) .

والمعنى : لو ثبت أن كان هناك كتاب بلغ من العظمة والإعجاز أن تنقل به الجبال من أماكنها ، أو تمزق الأرض وتنشق وتنفجر عيوناً وأنهاراً من خشية الله عند قراءة هذا القرآن، أو يحيا به الأموات، لكان هذا القرآن هو الذي تتحقق به هذه الأمور ، فليس هناك أعظم منه.

ويصح أن يكون المعنى : لو أن قرآناً بهذه الصفة وتلك الحال لما آمنوا ولما أذعنوا للحق ، فهم مصرون على كفرهم ، ولو جاءتهم كل
آية فطلبهم للآيات إنما هو عناد وتعنت لا رغبة في معرفة الحق والاستدلال عليه(١).

قال ﷻ : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ (٢).

وعلى هذا المعنى يكون المقصود من الآية الكريمة ، بيان غلوهم في العناد والطغيان وتماديهم في الكفر والضلال ، وأن سبب عدم إيمانهم ليس مرده إلى عدم ظهور الدلائل الدالة على صدقه ﷺ ، وإنما سببه الحسد والعناد والمكابرة .

وقوله ﷻ : " **بل لله الأمرُ جميعاً** " :

إضراب انتقالي ثم أخبر بأن الأمر كله لله ، فهو القادر على كل شيء ، وهو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وهو الذي لو شاء لهداهم ولكن حكمته اقتضت ألا يهتدوا .

و" **الـ** " في " **الأمر**" : لاستغراق الجنس فكل الأمور بيد الله وحده وهذا الأسلوب يفيد القصر ، حيث قدم ما حقه التأخير .

---

(١) تفسير أبي السعود (١٦٦/٣) بتصرف ، الكشاف (٣٦/٢) .
(٢) سورة الأنعام : الآية (١١١) .

أي : أنه ﷻ لا يعجزه أن يأتي بالمقترحات التي اقترحوها ، ولكن إرادته ﷻ لم تتعلق بما اقترحوه لعلمه ﷻ بعتوهم ونفورهم عن الحق مهما أوتوا من آيات .

وقوله ﷻ :"**أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعا**" تيئيس للمؤمنين من استجابة الجاحدين للحق ، إلا أن يشاء الله لهم الهداية ، والاستفهام للإنكار [١].

وفي المختار : " اليأس : القنوط ، وقد " يئس" من الشيء من باب فهم ، وفيه لغة أخرى " تيئس" بالكسر فيهما وهو شاذ "[٢].

وأصل اليأس : قطع الطمع في الشيء ، والقنوط من حصوله .

وللعلماء في تفسير هذه الجملة الكريمة اتجاهان :

أحدهما : يرى أصحابه أن الفعل ييأس على معناه الحقيقي ، وهو قطع الطمع في الشيء ، وعليه يكون المعنى : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان كفار قريش ، ويعلموا أن الله ﷻ لو يشاء هداية الناس جميعاً لاهتدوا ، ولكنه لم يشأ ذلك ليتميز الخبيث من الطيب .

وعلى هذا الاتجاه سار الإمامان ابن كثير والكسائي ، فقد قال الإمام ابن كثير – رحمه الله – : " قوله ﷻ : " **أفلم ييأس الذين آمنوا** " أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا " **أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً** " فإنه ليس هناك حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجح في النفوس والعقول من هذا القرآن ، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : " **ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة** [٣].

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم . تأليف أ د/ محمد سيد طنطاوي(٧١/١٣).

(٢) مختار الصحاح ص(٣٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب : الاعتصام بالكتاب والسنة – باب قول النبي ﷺ : " بعثت بجوامع الكلم " ح(٧٢٧٤).

أما الاتجاه الثاني: فيرى أصحابه أن الفعل " ييأس" بمعنى يعلم ، وعليه يكون المعنى : أفلم يعلم المؤمنون أنه ﷻ لو يشاء هداية الناس جميعاً لآمنوا ، وأنه ﷻ لم يشأ ذلك .

وهذا الاتجاه سار عليه الإمام الألوسي حيث قال في معنى قوله ﷻ : " **أفلم ييأس الذين آمنوا ...**" : " أفلم يعلم ، وهي – كما قال القاسم بن معين – لغة هوازن . وقال الكلبي : هي لغة حي من النخع ، وأنشدوا على ذلك قول سجيم بن وثيل الرياحي :

أقول لهم بالشعب إذ يأسروننني ∴ ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

وقول رياح بن عدي :

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه ∴ وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

والظاهر أن استعمال اليأس في ذلك حقيقة .

وقيل : مجاز ؛ لأنه متضمن العلم ، فإن الآيس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، والفاء للعطف على مقدر ، أي : أغفلوا عن كون الأمر جميعه لله ﷻ فلم يعلموا: **أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ...** "[1].

وقوله ﷻ : " **أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ...**" .

أي : أن الحال والشأن لو أراد الله أن يهدي الناس كلهم ومنهم هؤلاء الكفار – لفعل – ولكن حكمته ﷻ اقتضت أن يضل فريقاً ويهدي فريقاً : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى** ﴾ [2].

(١) تفسير الآلوسي (١٤١/١٣) .
(٢) سورة الأنعام : الآية (٣٥) .

ثم حذر الله ﷻ الكافرين من استمرارهم في الكفر ، فقال ﷻ : ﴿ **وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ .

" **قارعة**" : في المختار : " قرع الباب من باب قطع "(١).

والقارعة : الشديدة من شدائد الدهر ، وهي الداهية ، و " **قارعة**" : من القرع وأصله ضرب شيء بشيء بقوة .

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه ∴ ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

والمراد بها الرزية التي تقرع قلب صاحبها .

أي : يستمر الكافرون كذلك مصرين على كفرهم حتى تنزل بهم بسبب صنعهم وكفرهم داهية دهياء ، ومصيبة كبيرة من جدب و قتل أو أسر أو نحو ذلك .

وقال عكرمة : " قارعة ، أي : نكبة "(٢).

والباء للسببية ، و " ما " مصدرية أو موصولة ، وتنكير " قارعة" للتهويل والتعظيم .

وفي أبي السعود : " وقال ابن عباس ﷺ : أراد بالقارعة : السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثها ، وكانوا بين إغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم في دارهم فالإصابة والحلول حينئذ من أحوالهم ، ويجوز على هذا أن يكون قوله ﷻ : " **أو يحل قريباً من دراهم** " خطاباً لرسول الله ﷺ مراداً به حلول الحديبية ، والمراد بـ " **وعد الله** " ﷻ ما وعد به من فتح مكة ، وعزا ذلك الطبري إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة وروى عن مقاتل وعكرمة(٣).

---

(١) مختار الصحاح للرازي ص(٢٢٢) .

(٢) مختصر ابن كثير (٣٨٣/٢) .

(٣) تفسير الطبري (٤٢٧/٧) ، تفسير أبي السعود (١٦٨/٣) .

وقال ابن عطية : المراد بـ " **الذين كفروا** " قريش والعرب أنهم لا يزالون تصيبهم قوارع من سرايا رسول الله ﷺ وغزواته.

ويجوز في قوله : " **أو تحل** " : أن يكون فاعله ضمير القارعة ، وهذا أبين وأظهر ، أي : تصيبهم قارعة أو تحل القارعة وموضعها تصب عطف على خير يزال .

وقال الحسن بن أبي الحسن : الآية عامة في الكفار إلى يوم القيامة وأن حال الكفرة هكذا هي أبداً "(١).

وأبهم ﷻ ما يصيب الكافرين من قوارع لتهوليه وبيان شدته ، وعبر ﷻ عما أصابهم من بلاء بـ " "**القارعة** " للمبالغة في شدته وقوته حتى إنه ليقرع قلوبهم فجأة فيبهتهم ويزعجهم ؛ ولذلك سميت القيامة بالقارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها .

وقال ﷻ : " **أو تحل قريباً من دارهم** " .

أي : إن هذه القوارع تصيبهم بما يكرهونه ، وما أن تتنزل قريباً منهم فتخيفهم وتفزعهم وهم مستمرون على ذلك حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

فقال ﷻ : " **إن الله لا يخلف الميعاد** " : أي مما جرى به وعده وهو كائن لا محالة .

قال الإمام الفخر الرازي: "والغرض منه تقوية الرسولﷺ وإزالة الحزن عنه "(٢).

ولقد قضى الله ﷻ وعده بهزيمتهم في بدر ، وأتم نصره ونعمته على المؤمنين بفتح مكة .

والغرض من التذييل : مقرر ومؤكد للتوعيد والتهديد ؟

القراءات القرآنية :

(١) تفسير ابن عطية (٣/٣١٣) .
(٢) الرازي ( ) .

قال البزي : " **أفلم ييأس**" من عامة طرق أبي ربيعة ، بتقديم إلى موضع الياء وتأخير الياء إلى موضع الهمزة ، ثم يبدل الهمزة ألفاً .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن : " **يأيس**" وقرأ علي وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين ، وعكرمة ، وابن أبي مليكة والجحدري وعلي بن الحسين ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وأبو زيد المزني وعلي بن نديمة ، وعبدالله بن يزيد : " **أفلم يتبين**" من بينت كذا إذا عرفته .

وتدل هذه القراءة على أن معنى : " **أفلم ييأس**" هنا معنى العلم ، كما تضافرت النقول أنها لغة لبعض العرب .

وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله : " **أفلم ييأس**" كما يدل عليه ظاهر كلام الزمخشري ، بل هي قراءة مسندة إلى رسول الله ﷺ وليست مخالفة للسواد إذا كتبوا ييئس بغير صورة الهمزة .

وفي قراءة ابن مسعود ومجاهد : " **ولا يزال الذين ظلموا** " .

وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير : " **أو يحل**" بالياء ، و " **قريباً من ديارهم**" بالجمع(١).

المعنى العام للآيات :

ذكرت الآية الأولى حالة المؤمنين وجزاؤهم وما أعده الله لهم ، فبين أنهم تسكن قلوبهم وتنشرح صدورهم وتفرح بذكر الله وفضله وثوابه .

وكذلك يضمون إلى الإيمان والتصديق القلبي عملاً صالحاً يرضى الله عنهم .

وكذلك أعد لهم أحسن الجزاء وأفضل العاقبة كما قال ﷻ : ﴿ **وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (٢).

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (١٥١/٢) ، تفسير البحر المحيط (٣٩٠/٦، ٣٩١) ، تفسير ابن عطية (٣١٣/٣) .

(٢) سورة آل عمران : الآية (١٤) .

ثم في الآية الثانية : يقول للرسول ﷺ إننا أرسلناك رحمة لهذه الأمة كما أرسلنا الرسل من قبلك رحمة لأممهم في القرون الماضية ، وإننا أنزلنا عليك القرآن آية ورحمة لكي تبلغها لهم ، ولكنهم قوم لا يقدرون هذه النعمة حق قدرها، ولا يشكرون الله الذي أنعم عليهم ورحمهم بها، فاستمسك أنت بالحق الذي أنزل عليك ، وبين ذلك في أمور أربعة :

١ –توحيد الربوبية فلا خالق ولا رازق إلا الله " **قل هو ربي**" .

٢ –توحيد الألوهية ، فلا عبادة إلا لله " **لا إله إلا هو** " .

٣ –التوكل على الله ، فلا اعتماد إلا عليه ، ولا ملجأ إلا إليه " **عليه توكلت** " .

٤ –التوبة إليه والرجوع عن كل ما يغضبه " **وإليه متاب** " .

ثم نرى مدح الله ﷻ للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سار الكتب المنزلة ، فبين أنه لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال من أماكنها أو تقطع به الأرض ، فتجعل أنهاراً وعيوناً أو تكلم به الموتى لكان هو هذا القرآن الذي أنزلناه عليك ، المتصف بذلك دون غيره .

ومع هذا فهم مصرون على كفرهم ، ولو جاءتهم كل آية، فطلبهم للآيات إنما هو عناد تعنت لا رغبة في معرفة الحق والاستدلال عليه ، فلا تطمعوا يا معاشر المؤمنين من إيمان هؤلاء المعاندين المتعنتين ؛ لأن الله لا يريد لهم الهداية ، بل لو أرادها للناس جميعاً لتحقق مراده ولكن حكمته اقتضت أن يبقى هؤلاء المصرون على الضلال في ضلالهم وأن يستمروا على عنادهم وكفرهم حتى تنزل بهم قارعة ، أو تقترب تلك القارعة من أوطانهم أو يحاصرهم الرسول ﷺ إلى أن يتحقق ما وعد الله ﷻ به من فتح ونصر للمؤمنين، أو هلاك للكافرين، أو مجئ الساعة: ﴿ **وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ** ﴾ (١).

(١) سورة القمر : الآية (٤٦) .

فالله ﷻ لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة،وذلك كما قال ﷻ : ﴿ **فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ** ﴾[1].

ولقد قضى الله ﷻ أمره بهزيمتهم في بدر وفي غيرها ، وأتم نصره على المؤمنين بفتح مكة .

❁❁❁

(١) سورة إبراهيم : الآية (٤٧) .

تسلية النبي ﷺ
وعقاب الكافرين وثواب المتقين

******

قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ .

علاقة الآيات بما قبلها :

لما بين الله ﷻ موقف الكفار من الرسول ﷺ وتعنتهم في طلب سائر المعجزات على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وكان ذلك يشق على الرسول ﷺ ، فأنزل الله ﷻ هذه الآيات تسلية له ، وبيان توبيخ الله لهم على موقفهم ، وأنزل عقابه بهم .

تفسير الألفاظ وتحليها :

قوله ﷻ : " **ولقد استهزئ برسل من قبلك ...**" .

الاستهزاء : المبالغة في السخرية والتهكم من المستهزء به .

والإملاء : أن يترك مدة طويلة من الزمان في دعة وأمن ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين به .

والتنكير في قوله : " **برسل** " : للتكثير : أي يرسل كثيرون ، فقد استهزأ قوم نوح به وكانوا كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، واستهزأ قوم شعيب به وقالوا له : ﴿ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (١).

واستهزأ قوم هود به وقالوا له : ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ...** ﴾ (١).

---

(١) سورة الشعراء : الآية (١٨٧) .

واستهزأ قوم فرعون بموسى فقالوا : ﴿ **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ** ﴾ (٢).

والمعنى : أن ذلك الاستهزاء ليس مختصاً بك بل هو أمر مطرد ، قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك ، فأمهلت الذين فعلوه بهم .

" **ثم أخذتهم** " : ثم أهلكتهم وأنزلت بهم عقابي الشديد المهول ؛ ولذلك قال تقريعاً وتبكيتاً لهم .

" **فكيف كان عقاب** " : يعني : أنه كان عقاباً أليماً مهولاً وشبيه بهذه الآية قوله ﷻ : ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ (٣) ، وقوله ﷻ : ﴿ **وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ (٤).

فالاستفهام للتعجب مما حل بهم والتهويل من شدته وفظاعته ، أي : فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزءوا بالرسل ، فأمليت لهم ثم أخذتهم ، والعدول في الصلة إلى وصف الكفر ليس لأن المملى لهم غير المستهزئين ، بل لإرادة الجمع بين الوصفين ، أي : فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط (٥).

وقال الإمام الآلوسي : " والعدول في الصلة إلى وصف الكفر ليس لأن المحلى لهم غير المستهزئين بل للإشارة إلى أن ذلك الاستهزاء كفر كما قيل(٦).

---

(١) سورة الأعراف : الآية (٦٦) .
(٢) سورة الزخرف : الآية (٥٢) .
(٣) سورة القمر : الآية (١٦) .
(٤) سورة الحج : الآية (٤٨) .
(٥) تفسير أبي السعود (١٦٨/٣) .
(٦) تفسير الآلوسي (٥٣٣/٨) .

ثم أقام ﷻ الأدلة على إثبات وحدانيته فقال ﷻ : " **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ....** " .

" **قائم على كل نفس**": القائم على الشيء: هو الملازم له بثبات مستمر، مأخوذ من القيام بمعنى الثبات والملازمة ، فإذا عدى بالباء كان معناه ملازمة عمله، فالقائم بالشيء هو الثابت على فعله ، وإذا عدى بـ " **على**" كان معناه : الثبات على القهر والغلبة، أو الثبات على الرعاية والحفظ، أو الثبات على المراقبة والعلم أو كل ذلك .

والمناسب هنا في مقام الربوبية مع قوله ﷻ " **بما كسبت** " أمران:

الأول: ملازمة المراقبة والعلم ، فلا يعذب من علمه ﷻ شيء مما تكسب كل نفس خيراً أو شراً علانية أو سراً .

الثاني : استمرار القهر والغلبة ؛ وذلك لتحقق العدل بعد الحساب المستند إلى العلم الذي يحيط بكل شيء .

وفي هذا تلميح للمشركين بعقاب الله ؛ لآن معنى القيام على كل نفس بما كسبت لابد أن يكون مصحوباً بالعدل ، ومن عدله معاقبة المسيئين.

" **ومن** " مبتدأ والخبر قوله : " **أفمن هو قائم** " محذوف دل عليه قوله ﷻ عقب ذلك : " **وجعلوا لله شركاء** " ، والتقدير : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت يشركون به من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً "[1].

قال الإمام القرطبي : " ليس هذا القيام القيامُ الذي هو ضد القعود بل هو بمعنى التولي لأمور الخلق ، كما يقال : قام فلان بشغل كذا ، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أو يقدرها على الكسب ، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجاريها على عملها .

(١) زاد المسير (٣٣٣/٤) .

فالمعنى : أنه حافظ لا يغفل ، أي : أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل ، وقيل: أفمن هو قائم، أي عالم قاله الأعمش .

قال الشاعر :

فلولا رجال من قريش أعزة ∴ شرقتم ثياب البيت والله قائم

أي عالم، فالله عالم بكسب كل نفس ، وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم ، وهذا مروى عن الضحاك "[1].

قال الإمام الآلوسي : " وما حكاه القرطبي عن الضحاك من أن المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم فما لا يكاد يعرج عليه هنا"[2].

والمقصود من الآية الكريمة : إنكار المماثلة بين الخالق العظيم ، العليم بأحوال جميع النفوس ... وبين تلك الأصنام التي أشركوها مع الله ﷻ في العبادة، والتي هي لا تسمع ولا تبصر ولا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها نفعاً ولا ضراً .

والاستفهام في : " **أفمن هو قائم** " استفهام إنكاري من قبيل الإنكار الإبطالي.

" **وجعلوا لله شركاء** " : جملة حالية ، والتقدير : أفمن هذه صفاته وهو الله ﷻ كمن ليس كذلك ، والحال : أن هؤلاء الأغبياء قد جعلوا له شركاء في العبادة وغيها ، وهؤلاء الشركاء في منتهى الحقارة والعجز والجهالة ، وقد استفيد هذا من تنكير " **شركاء** " إذ يأتي التنكير للتحقير .

فالمقصود من هذه الجملة : زيادة توبيخهم وتسفيه عقولهم .

---

(١) تفسير القرطبي (٣٥٥١/٥) .

(٢) تفسير الآلوسي (٥٣٤/٨) .

ثم أرشد الله رسوله الكريم ﷺ إلى لون من ألوان المحاجة للمشركين لإلزامهم بفساد طريقتهم وبطلان اعتقادهم بالشركاء ، فقال ﷻ : " **قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ** " .

ففي هذه الآية تبكيت لهم وتوبيخ ، أي : قل لهم أيها الرسول الكريم: سموهم شركاء إن شئتم ، فإن هذه التسمية لا وجود لها في الحقيقة ، والواقع ، ولا تخرجهم عن كونهم لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم نفعاً ولا ضراً .

وهذه التسمية هي من عند أنفسكم ما أنزل الله بها من سلطان ، كما قال ﷻ : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** ﴾ (١).

والأمر في قوله : " **سموهم**" مستعمل في الإباحة المصحوبة بالتهديد للإشارة إلى عدم الاكتراث بهم وبآلهتهم التي سموها شركاء .

وهذا كما يقول العاقل للأحمق الذي لا يحسن الكلام : قل ما شئت فإن كلامك لا وزن له ولا خير فيه .

قال الإمام الرازي عند تفسيره لهذه الآية : " واعلم أن الله ﷻ لما قرر هذه الحجة وهي أن القائم على كل نفس ليس كمن لا يملك شيئاً زاد في الحجاج ، فقال : " **قل سموهم** " إنما يقال ذلك في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم فعند ذلك يقال : سمه إن شئت ، يعني : إنه أخس من أن يسمى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل ، فكأنه ﷻ قال سموهم بالآلهة ، والمعنى : سواء أسميتموهم بهذا الاسم أم لم تسموهم به فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها "(٢).

وقوله ﷻ : " **أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ** "

---

(١) سورة النجم : الآية (٢٣) .

(٢) الفخر الرازي (٥٦/١٩) .

الاستفهام : للإنكار والتوبيخ ، أي : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين جعلوا لله شركاء وسموهم بهذا الاسم قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أتخبرون الله بشركاء لا وجود لهم في الأرض ؛ لأنه ﷻ إذا كان لا يعلمها وهو الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فهى لا حقيقة لها أصلاً .

قال الآلوسي : " وقوله : " **أتنبئونه** " أي : بل أتخبرون الله ﷻ بما لا يعلم في الأرض ، أي : بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم ﷻ ، والمراد : نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية ؛ لأنه ﷻ إذا كان لا يعلمها فهي لا حقيقة لها أصلاً .

وتخصيص " **الأرض**" بالذكر ؛ لأن المشركين زعموا أنه ﷻ له شركاء فيها .

وقوله : " **أم بظاهر من القول** " .

أي أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجي كافوراً ، كقوله ﷻ : ﴿ **ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾ (١) ، وقوله ﷻ : ﴿ **إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا**﴾ (٢).

وروى عن الضحاك وقتادة أن الظاهر من القول الباطل منه كما في قول الشاعر:

اعيرتنا البانها ولحومها ∴ وذلك عارٍ بابن ريطة ظاهر

أي : باطل زائد (٣).

و " **أم**" في قوله : " **أم بظاهر من القول** " فيها وجهان :

١ –منقطعة ، أي : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، أي : تنطقون بتلك الأسماء وتسمونها آلهة ولا حقيقة لها ، إذ أنتم لا تعلمون أنها تتصف بشيء من أوصاف الألوهية كقوله :

---

(١) سورة التوبة : الآية (٣٠) .
(٢) سورة يوسف : الآية (٤٠) .
(٣) تفسير الآلوسي (١٠٤/١٣) .

﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا** ﴾ (١).

٢ -وقيل : "**أم**" متصلة ، والتقدير : أم تنبوئة بظاهر من القول لا حقيقة له كقوله : ﴿ **ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾ (٢) .

وقوله ﷻ : " **بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** " .

زين بالبناء للمجهول وتزيين الشيء تحسينه ، قرأ ابن عباس ﷺ : "**زين** " على البناء للفاعل ، على أن الذين زين لهم ذلك هو مكرهم ، وقرأ من عداه بالبناء للمفعول والمزين هو الله ﷻ أو الشيطان(٣).

و " **المكر**" : صرف الغير عما يريده بحيلة وتدبير أمر في خفاء عن دبر عليه لصرفه عما يريد ، والمراد به هنا كفرهم ومسالكهم الخبيثة ضد الإسلام ، وهو نائب فاعل " **زين**" ، قال ﷻ : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ (٤).

" **وصدوا** " : فيها قراءتان : إحداهما : بالبناء للمجهول ، والأخرى بالبناء للمعلوم، وعلى القراءة الثانية إما أن يكون لفظ " **صدوا** " فعلاً لازماً غير متعد ، ومعناه : أعرضوا ، وإما أن يكون متعدياً ، ومعناه :
صرفوا الأتباع عن السبيل(٥).
" **وصدوا عن السبيل** " : إذا كان على قراءة البناء للمجهول ، فالمعنى كما يلي :

---

(١) سورة يوسف : الآية (٤٠) .
(٢) سورة التوبة : الآية (٣٠) .
(٣) فتح القدير (٨٥/٣) .
(٤) سورة الأنفال : الآية (٣٠) .
(٥) المستنير في تخريج القراءات المتواترة ص(٣٣٣) .

أما الأتباع فقد صدهم قادتهم عن سلوك السبيل الحق الذي هو سبيل الله ، وأما الرؤساء ، فقد صدهم ما زين لهم صدهم عن سلوك السبيل الحق ، أو صدهم الشيطان عنه ، ويرد على هذا أن الشيطان لا سلطان له ، ولا يتعدى تأثيره حدود الإغواء والوسوسة والتزيين له .

وإذا كان على قراءة البناء للمعلوم ، فالمعنى كما يلي :

أما القادة فقد صدوا أتباعهم أي صرفوهم عن سلوك السبيل كما أعرضوا هم عنه، وأما الأتباع فقد أعرضوا عن سلوك السبيل كما ساهموا بصرف أتباع لهم من نساء وذراري عن سلوك سبيل الله ؛ لأن كل تابع لغيره لابد أن يجد تابعاً له غالباً مع تعاقب الزمن(١).

" **ومن يضلل الله فما له من هاد** " .

أي : من يثبت الله ضلاله فما له من هاد يثبت له الهداية بعد أن حكم الله عليه بالضلالة ، ومن حكم الله عليه بالضلالة فلا واقي له من عقاب الله ، ولذلك رتب الله على الحكم عليهم بالضلالة الذي أشارت إليه الآية ما جاء في الآية التالية وهو : " **لهم عذاب في الدنيا** ...." .

هذا وقد اشتملت هذه الآية على ألوان من الحجج الساطعة التي تثبت وجوب إخلاص العبادة لله ، وتبطل الشرك والشركاء ، أشار إليها بعض المفسرين فقال :

قال الطيبي: " في هذه الآية الكريمة احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان :

أولها : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، كمن ليس كذلك احتجاج عليهم ، وتوبيخ لهم على القياس الفاسد تفقد الجهة الجامعة لهما.

(١) المرجع السابق ، بتصرف .

ثانيها : " **وجعلوا لله شركاء** " من وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في أسمائه .

ثالثها : " **قل سموهم** " أي عينوا أسماءهم فقولوا فلان وفلانة ، فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني .

رابعاً : " **أم تنبئونه بما لا يعلم** " احتجاج من باب نفي الشيء ، أعني العلم بنفي لازمه وهو المعلوم وهو كناية .

خامساً : أم بظاهر القول ، احتجاج من باب الاستدراج لبعثهم على التفكر ، أي : أتقولون بأفواهكم من غير روية ، وأنتم ألباء فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه .

سادسها : التدرج في كل من الاضرابات على ألطف وجه،وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها كان الاحتجاج المذكور منادياً على نفسه بالإعجاز ، وأنه ليس من كلام البشر" [1].

ثم بين الله ﷻ عاقبة الكافرين فقال : " **لهم عذاب في الحياة الدنيا**" .

هذا أول وعيد صريح يعلنه الله في هذه السورة بمعجل العذاب في الحياة الدنيا للكافرين بعدما سبق من التلويح به في معاريض القول .

والعذاب على أنواع قد يكون بإيلام النفس ، وقد يكون بإيلام الجسد ، وقد يكون بإيلام الروح من وراء النفس والجسد ، وقد يكون بكل ما سبق ، وأشده ما يكون بإيلام الروح ، أو ما جمع أنواع الألم كلها .

والعذاب في الحياة الدنيا الذي وعد الله به هؤلاء المشركين يكون بالخذلان والقتل والأسر على أيدي المؤمنين كما يكون بعقوبات الله الأخرى .

ولا يقتصر وعيدهم على عذاب الحياة الدنيا ، فإن لهم عذاباً في الآخرة أيضاً .

" **ولعذاب الآخرة أشق** " : أي : أشد لإيلاماً من عذاب الدنيا لشدته ودوامه .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين (٥٠٧/٢) .

" **أشق**" أفعل تفضيل من المشقة ، يقال لغة : شق عليه أمر يشق شقاً ومشقة أي ثقل واشتد ؛ وذلك لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا في كميته ، وفي كيفيته ، فهو أقوى وأكثر أنواعاً ودواماً .

وفي الكلام مضاف محذوف تقديره : ولعذاب الحياة الآخرة ؛ لأنها في مقابل الحياة الدنيا(١).

" **وما لهم من الله من واق** " .

" **واق**" : اسم فاعل من وقى يقي وقاية فهو واق ، والوقاية هي : ما يحجز أو يدفع الأذى والضر .

أي : فما لهم من واق يقيهم من عذاب الله ، فيكون " **من الله** " على تقدير مضاف محذوف ، أي من عذاب الله ، ويحتمل أن تكون " **من** " على معنى البدلية ، أي : وما لهم بدل الله من واق ، أو التقدير : وما لهم من جهة الله – أي من رحمته – من واق يدفع عنهم عذابه (٢).

و " **من** " في قوله ﷻ : " **من واق** " زائدة لتأكيد العموم ؛ لأنها وقعت في سياق النفي .

ثم بين الله ﷻ حسن عاقبة المتقين فقال : " **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا .... "** .

" **مثل الجنة**" : أي صفة الجنة ، ومثل الشيء هو ما كان بينه وبينه مشابهة ما، والصورة الكلامية المعبرة عن شيء إنما هي مشابهة في دلالتها لواقع ذلك الشيء ، ومن ذلك تسمى الصورة مثالاً وتمثالاً ، ويقال : مثل له الشيء إذا صوره

(١) سورة الرعد دراسة أدبية ولغوية وفكرية ص(٢٣٤) .
(٢) الكشاف (١٦٨/٢) .

، ومنه قوله ﷻ : ﴿ **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً** ﴾ [1] ، أي : أتاها في صورة بشر سوي .

و " **مثل الجنة** " مبتدأ خبره جملة " **تجري من تحتها الأنهار** " ، وجملة : " **أكلها دائم** " : خبر ثان[2].

" **وعد المتقون** " : أي وعدها المتقون أو وُعد بها المتقون .

" **تجري من تحتها الأنهار** " : أي تجري في أرضها ، فتكون " **من**" بمعنى "في" أو تجري من تحت قصورها ، فتكون " **من**" لابتداء الغاية.

" **أكلها دائم** " : أي ثمر أشجارها دائم وظلها دائم لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا .

" **تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار**" .

واسم الإشارة في قوله : " **تلك** " يعود على الجنة التي أعدها الله ﷻ للمتقين ، وهو مبتدأ خبره " **عقبى الذين اتقوا** " .

والمعنى : لما دعى إلى السياق إلى بيان وعيد الكافرين في الآخرة كان من مقتضى التقابل الذي التزمه القرآن غالباً في هذا الموضوع أن يعيد الله ذكر ما وعد به المؤمنين في الآخرة ، ولكن الإعادة لابد أن يرافقها مزيد من التفصيل والبيان عما جاء فيما سبق من السورة ؛ لذلك أعطى الله الجنة هنا بعض الصفات المشوقة إليها والمرغبة فيها ، فقال ﷻ : " **تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها** " أي : وظلها دائم .

أما مآل الكافرين ومنتهى أمرهم النار وبئس القرار .

القراءات القرآنيـــة :

---

(١) سورة مريم : الآية (١٧) .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١٣/١٥٥).

وقرأ : " **أكْلها**" بسكون الكاف نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وقرأ أبو خليد عن نافع : " **ولا أشرك** " بالرفع على القطع ، أي : وأنا لا أشرك به ، وجوز أن يكون حالاً ، أي : أن أعبد الله غير مشرك به .

قيل : وهو الأولى لخلو الاستئناف عن دلالة الكلام على أن المأمور به تخصيص العبادة به ﷻ (١).

المعنى العام :

في الآية الأولى : يواسي الله ﷻ رسوله ﷺ على ما يلاقيه من تعنت هؤلاء الكفار وإيذائهم له وسخريتهم به ، فيقول له : إن أخوانه من النبيين قد لاقوا مثل ذلك الإيذاء والاستهزاء ، وإن الله ﷻ قد أمهل المستهزئين ولكنه لم يمهلهم بل أخذهم أخذ عزيز مقتدر وأنزل بهم عقابه القوي الرهيب .

ثم بعد ذلك يقرر الله ﷻ عقيدة التوحيد ويؤكدها فنجد في الآية الثانية يسأل الله ﷻ ، أفبعد ما سبق من الأدلة والحجج البراهين على وحدانية الله وقدرته وعلمه الواسع وقيامه على كل إنسان بالرقابة والتدبر لكل الأمور والحفظ ، أيستوي الرقيب على كل نفس الذي يحاسبها على ما قدمت أيستوي ومع من ليس كذلك ؟ !

ثم وبخ الكفار على اتخاذهم شركاء لله ﷻ وطالبهم بتسمية هؤلاء الشركاء المزعومين الذين لا حقيقة لهم ، ثم يبالغ في تبكيتهم ، ويعرض عن المطالبة السابقة ويسألهم سؤالاً آخر : أتخبرونه بشركاء لا يعلمهم ؟

إنه ﷻ يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، فكيف يكون له شركاء في الأرض ثم لا يعلمهم ؟

ثم يسأل سؤالاً آخر : أتقولون أن له شركاء قولاً ظاهرياً خالياً من الحقيقة والواقع والصواب .... .

(١) إتحاف فضلاء البشر (١٦٣/٢) ، تفسير البحر المحيط (٣٨٩/٦) .

ثم وضحت الآيات وقررت أن هؤلاء الكافرين سولت لهم نفوسهم وسول لهم شيطانهم الكفر والمكر السيء ، وبعدوا عن الصراط المستقيم لأنه ﷻ بعلمه وحكمته قدر لهم الضلال لحبهم للضلال وبعدهم عن الحق وهذه سنة الله ﷻ فإن الله لا يهدي القوم الظالمين ، كما قال ﷻ : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ (١).

ثم وضحت الآيات ما أعده لهم من عقاب في الدنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة من عقاب دائم شديد ، وأنه لا يوجد من يعصمهم من عذاب الله الدائم .

ثم ختمت الآيات بوصف الجنة التي هيأها الله لعباده المؤمنين بصفات، منها : أن مياه الأنهار تجري من تحت قصورها وأشجارها ، وأن ثمراتها دائمة ، ولذتها مستمرة في الأفواه ، ومنها : أن ظلها ظليل لا ينسخ ولا يزول ، فهذه هي الجنة التي يفوز بها المتقون الذين أطاعوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه .

أما العاقبة التي يؤول إليها الكافرون فنار حامية وبئس القرار .

وهناك أحاديث كثيرة في صفة الجنة ، منها :

روى البخاري بسنده عن ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه: "**قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك تلقفت – أي توقفت وأحجمت .. ؟ فقال : إني رأيت الجنة – أو أريت الجنة – فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا** "(٢).

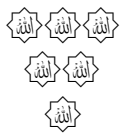

(١) سورة الصف : الآية (٥) .

(٢) صحيح البخاري – باب : صلاة الكسوف جماعة (٦٢٧/٢، ٦٢٨) .

دفع شبهات المشركين
حول نبوة النبي ﷺ

*****

قال ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ .

علاقة الآيات بما قبلها :

يلاحظ في الآيات السابقة أنها تناقش قضية التوحيد والإيمان بالله القائم على كل نفس بما كسبت ، وفي هذه الآيات مناقشة لقضية الإيمان بكتاب الله ثم برسوله والإيمان بالآخرة ، وهذه الآيات وسابقتها تقرر حقيقة واحدة دعت إليها السورة من بدايتها وهي الإيمان بالله وكتابه ورسوله.

سبب نزول الآيات:

ذكر كثير من المفسرين بعض الروايات في سبب النزول، منها :

١ –أن عبدالله بن سلام ومن آمن معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر "**الرحمن**" في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** ﴾ [(١)] ، ففرحوا بذلك ، فأنزل الله ﷻ :

" **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** " [(٢)].

---

(١) سورة الإسراء : الآية (١١٠) .

(٢) فتح القدير (٨٧/٣) .

٢ –وروى أن المشركين كانوا يدعون النبي ﷺ إلى ملة آبائه ، فحذره الله من متابعة أهوائهم بقوله : " **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ** " (١).

٣ –ولما عير الكفار النبي ﷺ بكثرة النساء نزل قوله ﷻ : " **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً** "(٢).

وحينما نزل قوله ﷻ : " **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**" قالوا : يا محمد ما نراك تملك من شيء ، لقد فرغ من الأمر ، فأنزل الله ﷻ : " **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ** "(٣) .

تفسير الألفاظ وتحليها :

قوله ﷻ : " **والذين آتيناهم الكتاب** " .

يجوز أن يراد بهم أهل الكتاب الذين أوتوا التوراة ، ويكون المعنى : والذين أعطيناهم التوراة والإنجيل فآمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك – أيها الرسول الكريم – ثم آمنوا بك عند إرسالك رحمة للعالمين .

هؤلاء الذين تلك صفاتهم يفرحون بما أنزل إليك من قرآن ؛ لأن ما فيه من هدايات وبراهين على صدقك يزيدهم إيماناً على إيمانهم ، ويقيناً على يقينهم .

وقيل : المراد بهم المسلمون الذين أعطاهم الله القرآن الكريم .

فيكون المعنى : والذين آتيناهم الكتاب وهو القرآن الكريم فآمنوا بك وصدقوك يفرحون بكل ما ينزل عليك منه ؛ لأنه يزيدهم هداية على هدايتهم .

---

(١) الكشاف (٣٦٣/٢) .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص(١٥٨) .

(٣) لباب النقول في أسباب النزول ص(٣٣٤) ، فتح القدير (٨٩/٣).

ونلاحظ أن الرأي الأول أرجح؛لأن الآية الكريمة أعقبت الحديث عن عاقبة الذين اتقوا ربهم وهم المؤمنون الصادقون وعاقبة الكافرين، ولأن فرح المؤمنين بنزول القرآن أمر طبيعي فلا يحتاج إلى الحديث عنه.

ومن المفسرين الذين اقتصروا في تفسيرهم للآية على الرأي الأول الإمام ابن كثير فقد قال : " يقول الله ﷻ : " **والذين آتيناهم الكتاب**" وهم قائمون بمقتضاه " **يفرحون بما أنزل إليك** " أي : من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه ﷺ والبشارة به كما قال ﷻ : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [1] "[2].

" **ومن الأحزاب من ينكر بعضه** " :

" **الأحزاب** " : جمع حزب ويطلق على مجموعة من الناس اجتمعوا من أجل غاية معينة ، " **ومن** " للتبعيض ؛ لأن كثير منهم آمنوا ، أي أن بعض الجماعات المتحزبة على الرسول ﷺ كاليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا به ولم يسلموا وكذلك المشركون ينكرون بعض هذا الكتاب المنزل عليك ويكفرون به ؛ لأن فيه ما يخالف شرعتهم واعتقادهم .

وبعدما اتضح موقف الناس من الإيمان بهذا الكتاب وفرحهم به ، وبعض من كفر به ، وجحودهم لبعضه ، وضح موقف الرسول ﷺ فقال : " **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ**".

هذا أمر من الله ﷻ لرسوله الكريم ﷺ أن يلتزم بما أمره به . أي : قل لهم : إنني أمرت أن أعبد الله ﷻ ولا أشرك معه أحد في العبادة بأي وجه من الوجوه ،

(١) سورة البقرة : الآية (١٢١) .
(٢) تفسير ابن كثير (٣٧٧/٤) .

وهذا التوحيد اتفقت عليه جميع الشرائع ولم تنكره أو تختلف فيه ، وإليه وحده مرجعي ومصيري ونهاية أمري ، وهذا معناه الإيمان بالله وبلقائه ، وتلك هي دعوة كل الرسل .

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك بعض الفضائل التي امتاز بها القرآن الكريم فقال ﷻ: " **وكذلك أنزلناه حكماً عربياً** " .

" الكاف" للتشبيه ، واسم الإشارة يعود إلى الإنزال المأخوذ من "**أنزلناه**" ، وضمير الغائب في " **أنزلناه**" يعود إلى " **ما أنزل إليك** " في قوله في الآية السابقة: " **يفرحون بما أنزل إليك ...** " .

أي: مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها .

وقيل المعنى : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب ، فيكون اسم الإشارة عائد على الكتب السماوية السابقة ، وضمير الغائب في " **أنزلناه**" يعود إلى " **ما أنزل إليك** " في قوله في الآية السابقة : " **يفرحون بما أنزل إليك** " .

وقوله : " **حكماً عربياً** " حال من الضمير في " **أنزلناه** " .

و " **حكماً**" : أي حاكماً بين الناس . " **عربياً** " أي : بلسان عربي مبين هو لسانك ولسان قومك .

وهذه الجملة اشتملت على بعض فضائل القرآن الكريم، فكلمة "**حكماً**" : وضحت فضائله من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وأحكامه وتشريعاته .

وكلمة " **عربياً** " : وضحت فضائله من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه ، أي : نزل بلغة العرب التي هي أوضح اللغات وأغناها وأجلها ، ثم في كونه عربياً امتنان على العرب المخاطبين به ، ابتداء ، حيث نزل بلغتهم فكان من الواجب عليهم أن

يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيه ، فهو الكتاب العربي الذي فيه شرفهم وعزهم قال ﷻ : ﴿ **لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ (١).

وفي ذلك تعريض بغباء مشركي العرب، حيث لم يشكروا الله ﷻ على هذه النعمة ، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان(٢).

ثم حذر الله ﷻ أمة محمد ﷺ في شخص الرسول ﷺ من اتباع أهواء الكافرين، فقال ﷻ : " **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ** " .

الأهواء: جمع هوى والمراد بها : آراؤهم المنحرفة وعقائدهم الفاسدة و" اللام" في قوله : " **لئن**" : هي موطئة للقسم لتأكيد العقاب الشديد لمتبع أهواء هؤلاء الكافرين ، وهذا الأسلوب للتهييج والإلهاب .

" **بعد ما جاءك من العلم** " : الذي علمه الله لك عن طريق الوحي، وعلمك ما لم تكن تعلم .

و " **الولي** " : الناصر والمعين . و " **الواق**" : المدافع عن غيره .

وقوله ﷻ : " **مالك من الله من ولي ولا واق**" : جواب القسم ، أي: ليس لك من يتولى أمرك ويقيك ويمنعك عن عقاب الله ﷻ ، وهذا خطاب للنبي تعريض للأمة ؛ لأن النبي ﷺ معصوم من متابعة أهواء الكفار .

والمعنى : يخطاب الله ﷻ نبيه الكريم ويقول : لئن اتبعت يا محمد أهواءهم على سبيل الفرض ، وما تزينه لهم نفوسهم من عقائد فاسدة ومخالفة أوامر الله كالاستمرار على التوجه لقبلتهم بعدما أمرك الله أن تتحول وتتجه إلى البيت الحرام ، وكأن يعبد معبوداتهم سنة ، ويعبدوا معبوده سنة .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية (١٠) .

(٢) التفسير الوسيط أ د/ محمد سيد طنطاوي، المجلد السابع سورة الرعد ص(٨٥)

" **من بعد ما جاءك من العلم** " اليقيني بأن الإسلام هو دين الله الحق . " **مالك من الله** " : أي من عقابه من ناصر أو معين ، فإذا كان أكرم الخلق لو فعل هذا على سبيل الفرض لعاقبه الله فما بال من هو دونه في المنزلة والمكانة ؟

ثم بين الله ﷻ كيف اعترض المشركون على أن الرسول ﷺ بشر مثله مثل سائر الرسل الذين أرسلهم الله ﷻ من قبله ، فقال ﷻ : " **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً** " .

أي : لقد أرسلنا رسلاً كثيرين " **من قبلك**" يا محمد وجعلنا لهؤلاء الرسل أزواجاً يسكنون إليهن ويتناسلون ، وهذا شأن البشر وأنت من البشر ولست من الملائكة،وهذا كما قال ﷻ : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**﴾(١). فلا يجوز للكفار أن ينكروا عليك التزوج والتناسل .

قال الإمام الشوكاني : " وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه النساء .

أي : هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه "(٢).

والغرض من تنكير " **رسلاً** " : التكثير .

وقال ﷻ : " **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** " .

في هذه الآية رد على ما طلبوه من الرسول ﷺ من الآيات كنقل الجبال وتحويلها ذهباً ، وتفجير الينبوع وغير ذلك من المعجزات .

---

(١) سورة الكهف : الآية (١١٠) .

(٢) تفسير الشوكاني (٨٨/٣) .

أي : لم يكن في وسع أي رسول أن يأتي لمن أرسل إليهم بأي معجزة إلا بإذن الله وإرادته المبنية على الحكم والمصالح التي عليها يدور أمر الكائنات .

وقوله ﷻ : " **لكل أجل كتاب** " .

الأجل : المدة من الزمن والوقت المحدد لانتهاء الشيء أو لحلوله.

" **كتاب** " : عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم حسبما تقتضيه الحكمة ، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم في المبدأ والمعاد ، ومن قضية ذلك أنه يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيرة حسب تغير الأوقات، كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الأوقات [1].

ثم بين الله ﷻ بعض مظاهر قوته وسعة علمه وحكمته فقال ﷻ : "**يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**" .

هذه الآية تفسر على وجهين :

الأول: على العموم ، أي : يزيل الله ما يريد أن يزيله ، ويثبت ما يريد أن يثبته فلا يزيله ، فيدخل تحت ذلك محو الشقاوة وإثبات السعادة وعكسه ، ومحو الضيق في الرزق وإثبات السعة وعكسه ، ومحو الأجل وإثبات أجل آخر أطول أو أقصر ، فلله ﷻ أن يفعل ما يشاء من ذلك وغيره : ﴿ **لا يسأل عما يفعل** ﴾ " [2].

وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم[3].

الثاني : أن يكون المحو والإثبات ليس عاماً بل إن الحكم في الآية خاص ، وقد اختلف من قالوا بالخصوص ، فقيل : يمحو ما يشاء من الشرائع ويثبت ما يشاء منها ، وقيل : من الذنوب بالتوبة ، وقيل : يمحو الآباء ويثبت الأبناء ، وقيل

(١) تفسير أبي السعود (١٧٢/٣) .
(٢) تفسير أبي السعود (١٧١/٣) ، تفسير القرطبي (٣٥٥٨/٥) .
(٣) فتح القدير (٨٨/٣) .

: يمحو الأزواج بقبضها ... وقيل: يمحو آية الليل ، أي القمر ويثبت الشمس ، وقيل غير ذلك .

وقد رجح الإمام الشوكاني القول بالعموم ... لما تفيده " **ما** " في قوله " **ما يشاء** " من العموم .

وقوله ﷻ : " **يمحو ... ويثبت** " فيهما طباق .

وقوله ﷻ : " **وعنده أم الكتاب** " .

قال الفخر الرازي : " والعرب تسمى كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أماً له ، ومنه أم الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة ، ولكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى ، فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلاً لجميع الكتب "[١].

و " **أم الكتاب** " أي أصل الكتاب ، والمراد بـ " **أم الكتاب** " اللوح المحفوظ[٢]، أو علم الله ﷻ بما خلق وبما هو خالق[٣].

فالمراد من الآية : أنه يمحو ما يشاء فما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته ، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه ﷺ : " **جف القلم على علم الله** "[٤]، وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله ﷻ .

---

(١) الكشاف (٣٦٣/١) .

(٢) تفسير الفخر الرازي (٦٦/١٩) .

(٣) تفسير الشوكاني (٨٨/٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في " سننه" كتاب : الإيمان – باب : ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٩٢/٤) ح (٢٦٥١) ، قال أبو عيسى : " هذا حديث حسن " .

القراءات القرآنيـــة :

اختلف في : " **ويُثْبت**" :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بسكون الثاء وتخفيف الباء الموحدة من " أثبت " وافقهم ابن محيصن ، واليزيدي والحسن والشنيوذي .

وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي : " **ويُثَبِّتْ**" بفتح التاء وتشديد الباء[1].

المعنى العـــام :

في الآية الأولى يبين الله ﷻ ما يدل على مكانة القرآن الكريم ، وأنه الحق الذي أنزل إليك ، وأن الذين آتاهم الله الكتاب يفرحون وتنشرح صدورهم به ، فالمؤمنون أهل القرآن يفرحون بذلك ، والمؤمنون الذين كانوا من أهل التوراة والإنجيل كذلك لأنهم يعلمون صدقه وصدق ما أنزل إليه لصفته في كتبهم ، ومن الكفار المتحزبين ضد النبي ﷺ كالمشركين والمكذبين من اليهود والنصارى من يجحد بعض هذا القرآن ويكفر به ، ويكذب ما يخالف معتقده وفي هذا مواساة الله ﷻ لنبيه الكريم ﷺ حتى لا يحزن على فعل هؤلاء المكذبين الجاحدين .

ويأمر الله ﷻ نبيه محمد ﷺ أن يعلن عن أصول الإيمان وما جاء به القرآن الكريم المنزل عليه من ربه ، وهي : الإيمان بالله ﷻ وتوحيده وعدم الإشراك به، والإيمان باليوم الآخر ؛ لأن مرجعه ومآبه إلى الله ﷻ .

ثم في الآية الثانية : يقرر الله ﷻ أنه أنزل هذا القرآن على محمد ﷺ محكماً معرباً ، شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب الواضح المبين الجلي .

ويقسم ﷻ أنه له حاد عنه –وحاشى أن يكون ذلك فهو المعصوم ﷺ– ولكنه من باب تحذير الأمة ، فمن حاد عنه فليس له من دون الله من ينصره ويتولى أمره ، وليس له واق ولا منج من عقاب الله ﷻ .

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (١٦٣/٢) ، النشر في القراءات العشر (٢٩٨/٢).

وفي الآية الثالثة : يرد الله ﷻ على الكفار المتعنتين الذين يقترحون الآيات والذين يطعنون في الرسول لكثرة زوجاته فيقول لهم : إننا أرسلنا رسلاً سابقين وكان لهؤلاء الرسل أزواج وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بخارق لقومه الذين أرسل إليهم من عنده ، بل إن ذلك من عند الله ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وروى البخاري بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال :

" **جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني** "(١).

وفي الآية الرابعة : يقرر الله ﷻ أن الكل بقضاء الله وبقدره ، وأن الأمور مرهونة بأوقاتها ، فهو لا يسأل عما يفعل ، فهو ﷻ ينسخ من الشرائع ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وهو ﷻ يمحو من الآيات الكونية ما يشاء ويثبت ما يشاء ويمحو أجيالاً من الناس ويثبت بعدهم أجيالاً آخرين كل ذلك يفعله الله على وفق ما قدر أزلاً ، وكل ذلك ﴿ **فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى** ﴾ (٢).

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب : النكاح – باب : الترغيب في النكاح (٥/٩ ، ٦) ح (٥٠٦٣) .

(٢) سورة طه : الآية (٥٢) .

مهمة الرسول وشهادة الله له

******

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ .

علاقة الآيات بما قبلها :

في الآيات السابقة بين الله ﷻ كيف اقترح المشركون إنزال آيات واستعجال العذاب ، ذكر الله ﷻ هنا احتمال وقوع العذاب ، وبيان وظيفة الرسول ﷺ التبليغ والبيان ، وقد ظهرت آثار حصول المواعيد بفتح المسلمين جوانب الأرض .

تفسير الألفاظ وتحليلها :

قوله ﷻ : " **وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** " :

في هذه الآية تثبيت للرسول ﷺ وحض له على المضي في دعوته بدون تأجيل أو تهاون .

و"**ما** " في قوله : " **وإما نرينك** " زائدة لتأكيد معنى الشرط و"**ترينك**" فعل الشرط . والأصل : وإن نرك، والإراءة هنا بصرية،والكاف مفعول أول ، و " **بعض الذي نعدهم** " مفعول ثان ، وجواب الشرط محذوف .

والمعنى : وإما نرينك يا محمد بعض الذي توعدنا به أعداءك من العذاب الدنيوي ، فذاك شفاء لصدرك وصدور أتباعك .

والوعد : هنا يراد به الوعيد ، أي : ننزل بهم بعض ما نتوعدهم به من العذاب فتراه نازلاً بهم حال حياتك .

وقوله : " **أو نتوفينك** " : أي أو نقبضك قبل أن ننزل بهم العذاب فهو معطوف على الشرط المؤكد بالنون ؛ ولذلك جاء مؤكداً كذلك بالنون ، وجوابه أيضاً محذوف والتقدير : أو نتوفينك قبل ذلك فلا تهتم واترك الأمر لنا .

وقوله : " **فإنما عليك البلاغ** " : تعليل لهذا الجواب المحذوف ، أي: سواء أرأيت عذابهم أم لم تره فإنما عليك فقط تبليغ ما أمرناك بتبليغه للناس .

" **وعلينا** " وحدنا " **الحساب** " أي : محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم السيئة .

ولقد صدق الله ﷻ وعده لنبيه ﷺ فأراه قبل أن يفارق هذه الدنيا جانباً من العذاب الذي أنزله بأعدائه ، فسلط على مشركي مكة الجدب والقحط الذي جعلهم يأكلون العظام والميتة والجلود ، كما سلط عليهم المؤمنين فهزموهم في غزوة بدر وفي غزوة الفتح وغيرها [1].

وقوله ﷻ : " **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** " .

الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والواو للعطف على مقدر ، والخطاب لمشركي مكة ، وكل من على شاكلتهم في الكفر ، والمراد بـ "**الأرض**" أرض الكفرة والظالمين .

المعنى : أن هؤلاء الكافرين عموا عن الحقيقة وهي أن قدرة الله قد غلبت كثير من الأمم القوية حين كفرت بنعمة الله ﷻ فضربت قوتها ضعفاً وعزتها زلاً وهواناً ، وحصرتها في أماكن قليلة من الأرض ، فهذه الآية إنذار للكافرين .

(١) التفسير الوسيط للإمام الأكبر أ د / محمد سيد طنطاوي ، المجلد السابع ، سورة الرعد ص(٩٠) .

قال الآلوسي ما ملخصه : " وروى عن ابن عباس أن المراد بانتقاص الأرض: موت أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها ، وعليه يكون المراد بالأرض جنسها ، وبالأطراف الأشراف والعلماء ، وشاهده قول الفرزدق :

واسأل بنا وبكم إذا وردت مني ∴ أطراف كل قبيلة من يتبع؟

يريد أشراف كل قبيلة .

وتقرير الآية عليه : أولم يروا أنا نحدث في الدنيا من الاختلاف خراباً بعد عمارة وموتاً بعد حياة ، وزلاً بعد عز، فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله ﷻ الأمر عليهم فيجعلهم أذلة بعد أن كانوا أعزة ... ثم قال : وهو كما ترى .

والأول: وهو أن يكون المراد بالأرض أرض الكفر ، وبالأطراف الجوانب ، أوفق بالمقام ، ولا يخفى ما في التعبير بالإتيان المؤذن بعظيم الاستيلاء من الفخامة ، وجملة " **ننقصها** " في موضع الحال من فعل "**تأتي**" [(١)].

وقوله ﷻ : " **والله يحكم لا معقب لحكمه** " .

والمعقب : هو الذي يتعقب فعل غيره أو قوله فيبطله ويصححه .

قال أبو حيان : " ومنه قيل لصاحب الحق ، معقب لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب .

أي : أن الله ﷻ يحكم ما يشاء في خلقه لا راد لحكمه ولا لقضائه ، ولا يتعقب أحد ما يحكم به بتغيير أو تبديل ، وقد حكم بعزة الإسلام وعلوه على الأديان .

وجملة " **والله يحكم** " جملة اسمية مؤكدة لمراعاة حال الكافرين وهو الإنكار .

وقوله ﷻ : " **لا معقب لحكمه** " جملة حالية بتأويل ، والله يحكم حالة كونه نافذا حكمه ، وقيل جملة اعتراضية "[(٢)].

---

(١) تفسير الآلوسي (١٣/١٥٥) .

(٢) تفسير أبو السعود (٣/١٧٣) .

وقوله ﷻ : " **وهو سريع الحساب** " .

أي : أنه ﷻ سريع الحساب ، فهو يجاز المحسن والمسيء على وجه السرعة؛ لأنه ﷻ محيط بكل شيء ، فإن وعد الله ﷻ بمعاقبتهم واقع لا محالة ، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ .

ثم قال ﷻ : " **وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً** " .

وفي هذه الآية تسلية للرسول ﷺ بأنه لا عبرة بمكرهم ولا تأثير لهم.

و " **المكر**" : هو إرادة الشيء في خفية .

وقوله : " **وقد مكر الذين من قبلهم** " يعني : أن الأمم السابقة قد دبروا في الخفاء ما دبروا ومكروا برسل الله كما مكر بك هؤلاء وكادوا لك ، فمكر قوم نوح بنوح ، ومكر قوم فرعون بموسى .

" **فلله المكر جميعاً** " : فكل أنواع المكر لله ﷻ ، فهو ﷻ يعلم بما بيتوه وإحباطه لمكرهم وإنجاته لرسله عليهم الصلاة والسلام .

قال الجمل : " وقوله " **فلله المكر جميعاً** " تعليل لمحذوف تقديره : فلا عبرة بمكرهم ، ولا تأثير له ، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله " **فلله المكر جميعاً** " أي : لا تأثير لمكرهم أصلاً ؛ لأنه معلوم لله ﷻ وتحت قدرته .... .

وأثبت لهم المكر باعتبار الكسب ، ونفاه عنهم باعتبار الخلق "[1].

وجملة : " **يعلم ما تكسب كل نفس** " بمنزلة التعليل لجملة " **فلله المكر جميعاً** " .

أي هو ﷻ يعلم ما يقع من كل إنسان من كسب للحسنات أو السيئات؛ لأنه لا تخفى عليه خافية من أحوال الخلق ، وسيجازيها بما تستحقه من خير أو شر .

وقوله : " **وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار** " .

أي : وسيعلم الكافرون لمن تكون العاقبة أهي لمحمد ﷺ أم أنها ستكون لهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين (٥١٢/٣) باختصار .

وفي قراءة " **وسيعلم الكافر** " فيكون المراد : جنس الكافر .

وقوله ﷻ : " **ويقول الذين كفروا لست مرسلا** " .

في هذه الآية شهادة بصدق رسالته ﷺ ؛ لأنها واحدة من العقائد الأربع التي قررتها السورة ، وهي : الإيمان بالله ، ورسوله، وكتابه ، ولقائه ، فمن كفر برسالتك فهو كافر بهذه العقائد كلها .

أي : لست مرسلاً من عند الله ﷻ ، وقد جاء هذا القول بصيغة المضارع ؛ للدلالة على تجدد هذا القول منهم أو لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجباً منها .

وإعراب قوله : " **لست مرسلاً** " (ليس) : فعل ماض ناقص ، والتاء : ضمير متصل مبني في محل رفع اسم ليس ، و (مرسلاً) : خبر ليس منصوب،وجملة (لست مرسلا) في محل نصب مفعول به مقول القول.

وقوله : " **قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم** " .

أي: قل لهم يا محمد: إن الله شاهداً عالماً بصدق رسالتي ودعوتي ويعلم كذبكم وكل من كان له علم بالكتب السماوية السابقة التي بشرت برسالتي وذكرت فيها أوصافي.

والباء الداخلة على اسم الجلالة الذي هو فاعل " **كفى**" في المعنى مزيدة للتأكيد، وقوله : " **ومن عنده علم الكتاب** " معطوف على اسم الجلالة ، والمراد بالموصول وبالكتاب الجنس .

" **ومن عنده علم الكتاب** " :

أي : وأهل الكتاب من اليهود والنصارى العالمون بما في التوراة والإنجيل أيضاً يشهدون بصدق رسالتي ، ويعلمون ذلك ، ومنهم من صرح بذلك وأظهره وآمن به كعبدالله بن سلام ، وتميم الداري ، وسلمان الفارسي ﷺ [1].

(١) الطبري (١١٩/١٣) .

ويجوز : أن يكون المراد ممن عنده علم الكتاب هو الله ﷻ فيكون من عطف الصفة على الموصوف أي كفى الله والذي عنده علم الكتاب(١).

القراءات القرآنيـــة :

اختلف في " **وسيعلم الكفار**" :

فقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وكذا خلف بضم الكاف ، وتقديم الفاء وفتحها جمع تكسير ، وافقهم الأعمش والحسن .

وقرأ المدنيان وابن كثير وأبو عامر : " **الكافر** " على التوحيد(٢).

وقرأ ابن مسعود : "**الكافرون**" بصيغة جمع السلامة . وقرأ أبي : "**الذين كفروا** " وقرأ : " **الكفر** " أي : أهله .

وقرأ جناح بن حبيش : " **وسيُعْلَمُ** " بالبناء للمفعول من أعلم أي سيخبر ، واللام للنفع ، وجوز أن تكون للملك على معنى سيخبر واللام للنفع وجوز أن تكون للملك على معنى سيعلم الكفرة من يملك الدنيا آخراً (٣).

وقرئ : " **وبمن** " بدخول الباء على " من" عطفاً على بالله ، وهذه القراءة شاذة .

وقرأ علي وأبي وابن عباس وعكرمة وابن جبير وعبدالرحمن بن أبي بكرة والضحاك وسالم بن عبدالله بن عمرو بن أبي إسحاق ومجاهد والحكم والأعمش: " **ومن عنده علم الكتاب** " بجعل " من " حرف جر

وجر ما بعده به ، وارتفاع " **علم** " بالابتداء ، والجار والمجرور في موضع الجر .

وقرأ علي أيضاً وابن الميقع والحسن بخلاف عنه : " **ومن عنده** " بجعل "**من**" حرف جر " **عُلِمَ الكتاب** " بجعل " **علم** " فعلاً مبنياً للمفعول و " **الكتاب**" رفع به .

---

(١) فتح القدير (٣/٩١) .

(٢) إتحاف فضلاء البشر (٢/١٦٣) ، النشر في القراءات العشر (٢/٢٩٨).

(٣) تفسير الآلوسي (٨/٥٦٥) .

وقرئ " **ومن عنده** " بحرف جر " **عُلِّم الكتاب** " مشدداً مبنياً للمفعول والضمير في " **عنده**" في هذه القراءات الثلاثة عائد على الله ﷻ(١).

المعنى العام :

يواسي الله ﷻ نبيه في الآية الأولى لما فعله الكفار من إيذائه وعدم تصديقه ويقول له : إن عليك البلاغ فقط سواء أطلنا في عمرك حتى ترى العقوبة التي تنزل بهم أم قبضناك إلينا فلا ترى ما نزل بهم من عقوبة ، فلا مؤاخذة عليك لأنك بلغت الرسالة ، أما حسابهم فعلى الله.

وفي الآية الثانية : تدليل على قدرة الله ﷻ ومن هذه القدرة : أن الله ﷻ يفتح أرض الكفار فيفتح بعضها بعضاً وتكون أرضاً للمسلمين ، وينقص من أهل الأرض بالإماتة ، وكذلك ينقص من ثمراتها ويهلك بعض أممها ، وكل ذلك دليل على قدرة الله ﷻ ، وأن الحكم والقضاء لله ﷻ فلا ناقض لحكم الله ولا مبطل لقضائه ، وإن الجزاء والحساب إنما هو للمحسن والمسيء من عند الله ﷻ " **والله يحكم لا معقب لحكمه وهو أسرع الحاسبين**" .

ثم أخبر الله ﷻ في الآية الثالثة أن الأمم السابقة لهؤلاء قد دبروا ومكروا لرسلهم وكذبوهم ، وأن ذلك عادة المكذبين للرسل ، مكر بإبراهيم نمروذ ، وبموسى فرعون ، وبعيسى اليهود ، ولكن مكرهم جميعاً باء بالفشل ؛ لأن التدبير كله لله ، وسيجزى كلاً بما عمل وكسب أو اكتسب ، ولكن سينكشف الأمر بعد ذلك وسيعلم الكفار لمن سيكون الفوز .

وفي الآية الرابعة : يخبر الله ﷻ ما يكرره الكفار من تكذيبهم للرسول ﷺ وإنكارهم لرسالته ، ولكن الله ﷻ يحتج عليهم بأمرين :

(١) تفسير البحر المحيط (٤٠٣/٦) .

أولاً : أن الله ﷻ شهد على نبوته ، وذلك بإظهار المعجزات الدالة على كونه صادقاً في ادعاء الرسالة ، وهذا أعلى مراتب الشهادة .

والثاني : شهادة أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله المنصفين المقسطين يعترفون برسالته وصدقه ، وذلك من معرفتهم لكتبهم المبشرة برسالته ﷺ لقوله ﷻ: **﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾** (١).

(١) سورة الأعراف : الآية (١٥٧) .

الخاتمة

- نسأل الله حسنها -

الخاتمة

****

الحمد لله الذي وفقني لإعداد هذا البحث الهام وأصلي وأسلم على نبي الإسلام .... وبعد ،،،

فهذا تفسير لـ " سورة الرعد " التي احتوت على كثير من المقاصد المشتركة للتنزيل المكي والتنزيل المدني ، ومن أهمها:

أولاً : أصول العقيدة ، ومنها :-

[١] الإيمان بالله ﷻ وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى .. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، وهو الواحد القهار ... وهو سريع الحساب .

[٢] الإيمان بوجود الملائكة كما قال ﷻ في السورة لبيان مهمتهم : ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّه .... وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِه ...** ﴾ .

[٣] الإيمان بالكتب السماوية المنزلة من عند الله وعلى رأسها القرآن الكريم وبيان أهميته وعظمته ، قال ﷻ : ﴿ **وَالَّذِي أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقّ** ﴾ .

[٤] الإيمان بالرسل وبيان وظيفتهم الأساسية وهي التبليغ وتنفيذ شرع الله ﷻ، والإشارة إلى أنهم كغيرهم من البشر من ناحية الزواج وإنجاب الذرية ، قال ﷻ: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّة .... فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾ .

[٥] الإيمان بالبعث وما فيه من جزاء وثواب وعقاب ، وقد ثبت ذلك في السورة بإثبات الأدلة الجدلية والبرهانية على تحقق البعث ، وذكر اليوم الآخر وما فيه من نعيم للمتقين وعذاب أليم للكافرين : ﴿ **وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ...**﴾ و ﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ...**﴾ و ﴿ **..مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .... ** ﴾ .

[٦] الإيمان بالقضاء والقدر ،وأن كل الخلق أمرهم بيد الله،فعليهم ينفذ قضاء الله وحكمه : ﴿ **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ .

ثانياً : تكلمت السورة أيضاً على الأخلاق الحميدة ونهت عن الأخلاق الذميمة، وبينت جزاء من اتصف بالخلق الحميد فله الجنة ، ويلحق بهم آباءهم وأبنائهم وزوجاتهم .

وعلى العكس تماماً من اتصف بالخلق الذميم عليهم اللعنة وسوء العاقبة ، كما نرى في الآيات المتتالية من قوله ﷻ : ﴿ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ..... أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ .

ثالثاً : تكلمت السورة الكريمة على وعد الرسول ﷺ بالنصر وتأييده.

رابعاً : تحدثت السورة على تسلية الرسول ﷺ بذكر بعض الأقوام السابقة وما فعلوه مع أنبيائهم وما حل بهم نتيجة هذا التكذيب : ﴿ **كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ..... وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ....**﴾ .

خامساً : اشتملت السورة على كثير من فنون البلاغة ، ومنها :

[١] علم البديع من طباق ومقابلة وجناس .

[٢] علم المعاني من تقديم وتأخير وذكر وحذف .

[٣] علم البيان كالاستعارات والتشبيهات والكنايات والمجازات.

كذلك احتوت السورة على طابع الأسلوب المكي وطابع الأسلوب المدني ، فعند الحديث عن البشارة تستعمل الأسلوب الرقيق ، كما تستعمل أسلوب التهديد والوعيد في موقف الإنذار .

كما أن آياتها مترابطة مؤكدة ببعضها البعض ، وهذا هو القرآن الكريم .

وبعد : فهذا جهد مقل فإن كنت قد وفقت فهذا من عند الله ، وإن كنت قد قصرت فهذا مني ومن الشيطان ، فالخير أردت والحق قصدت.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

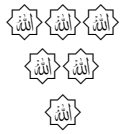

قائمة أهم مراجع البحث

*****

أولاً : القرآن وعلومه :-

١. -القرآن الكريم .
٢. -إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . لأبي السعود .
٣. -أسباب النزول . للواحدي ، ط / مكتبة المتنبي بالقاهرة .
٤. -أنوار التنزيل وأسرار التأويل . للبيضاوي ، تح أ د / حمزة النشرتي ، الشيخ / عبدالحفيظ فرغلي ، أ د / عبدالحميد مصطفى .
٥. -الإتقان في علوم القرآن . للسيوطي ، ط / المشهد الحسيني بالقاهرة.
٦. -البحر المحيط . لأبي حيان . ط / بيروت .
٧. -البرهان في متشابه القرآن . للكرماني . ط / دار صادر ، تح / أحمد عز الدين خلف الله .
٨. -التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج . أ د / وهبه الزحيلي ، ط/ دار الفكر ، دمشق .
٩. -التفسير الموضوعي للقرآن الكريم . تأليف : سميح عاطف الزين ، ط / دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصري .
١٠. -التفسير الوسيط . للإمام الأكبر أ د / محمد سيد طنطاوي .
١١. -الدر المنثور في التفسير بالمأثور . للسيوطي ، ط / دار المعرفة .
١٢. -الرسائل التدمرية . لابن تيمية .
١٣. -الفتوحات الإلهية . للجمل . ط / دار إحياء الكتب العربية .
١٤. -الفلسفة الوضعية . لعباس محمود العقاد .
١٥. -الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . للزمخشري .

١٦. –المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . لابن عطية .
١٧. –تفسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير . محمد نسيب الرفاعي.
١٨. –تفسير القرآن العظيم . لابن كثير . ط / دار الشعب .
١٩. –تفسير سورة الرعد . د / يوسف القرضاوي ، ط / دار البشير .
٢٠. –جامع البيان في تفسير القرآن . للإمام محمد بن جرير الطبري . ط / دار المعرفة .
٢١. –حاشية الجمل على الجلالين . ط / عيسى الحلبي .
٢٢. –دراسات في التفسير الموضوعي . د / زاهر عوض الألمعي .
٢٣. –درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز. للخطيب الإسكافي . ط / دار الكتب العلمية ، بيروت .
٢٤. –روح المعاني . للآلوسي . ط / دار الغد العربي .
٢٥. –زاد المسير . لابن الجوزي .
٢٦. –صفوة التفاسير . لمحمد علي الصابوني . ط / دار القرآن الكريم ، بيروت .
٢٧. –غرائب التفسير وعجائب التأويل . للكرماني . ط / القبلة للثقافة الإسلامية، تح د / شمران سركال يونس .
٢٨. –فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . لمحمد بن علي الشوكاني .
٢٩. –في ظلال القرآن . للشهيد / سيد قطب ، ط / دار الشروق ، بيروت.
٣٠. –لباب النقول في أسباب النزول . للسيوطي . ط / شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي .
٣١. –محاسن التأويل . لمحمد جمال الدين القاسمي .

٣٢. -مختصر تفسير ابن كثير : لمحمد علي الصابوني . ط / دار القرآن الكريم ، بيروت .
٣٣. -معاني القرآن . تأليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ، المتوفى سنة ٢٠٧هـ ، ط / عالم الكتب .
٣٤. -معاني القرآن وإعرابه . لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج ، شرح وتحقيق د / عبدالجليل عبده شلبي ، ط / عالم الكتب .
٣٥. -مفاتيح الغيب : لفخر الدين الرازي .
٣٦. المفردات في غريب القرآن . للراغب الأصفهاني .
٣٧. -نظرات في القرآن . للشيخ / محمد الغزالي ، ط / نهضة مصر .

ثانياً : **كتب الحديث والأثر** :-
٣٨. -الجامع الصغير للسيوطي .
٣٩. -المستدرك على الصحيحين للحاكم .
٤٠. -سنن الترمذي .
٤١. -صحيح البخاري .
٤٢. -صحيح مسلم .
٤٣. -مسند الإمام أحمد . ط / مؤسسة قرطبة .

ثالثاً : **كتب التاريخ والسير واللغة** :-
٤٤. -إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر . للشيخ / أحمد بن محمد البنا ، ط / عالم الكتب .
٤٥. -التبيان في إعراب القرآن . للعكبري ، ط / عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .
٤٦. -المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها . ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٤٧. –المستنير في تخريج القراءات المتواترة .
٤٨. –النشر في القراءات العشر . تأليف / الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري ، ط / دار الفكر .
٤٩. –دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب . للشيخ / محمد الأمين الشنقيطي .
٥٠. –سورة الرعد دراسة أبية ولغوية وفكرية . عبدالرحمن حنبكة الميداني.
٥١. –مختار الصحاح . للإمام محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي.
٥٢. –معجم المؤلفين . تأليف / عمر رضا كحالة ، ط / دار التراث العربي.
٥٣. – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . لأبي العباس شمس الدين أحمد بن أحمد بن أبي بكر بن خلكان ، ط / دار صادر .

الفهـرس

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	الصفحة
المقدمة	١٥
التمهيد	١٨
عرض إجمالى لسورة الرعد	٢١
القرآن الذى أنزله الله الحق وبين قدرة الله ﷻ (الآيات : ١-٤)	٢٥
التفسير التحليلى للآيات	٢٧
المعنى العام	٤٠
إنكار المشركين للبعث والرد عليهم (الآيات : ٥: ٧)	٤٢
مناسبة الآيات لما قبلها	٤٢
تفسير الألفاظ وتحليلها	٤٢
المعنى العام	٥٩
علم الله ﷻ وقدرته (الآيات : ٨-١٠)	٦١
علاقة الآيات بما قبلها	٦١
تفسير الألفاظ وتحليلها	٦١
القراءات القرآنية	٦٥
المعنى العام	٦٥
رعاية الله لعباده (الآية : ١١) .	٦٦
علاقة الآية بما قبلها	٦٦
تفسير الألفاظ وتحليلها	٦٦
القراءات القرآنية	٧٢
المعنى العام	٧٢
بعض مظاهر قدرة الله (الآيات : ١٢-١٥)	٧٥
مناسبة الآيات لما قبلها	٧٥
أسباب النزول	٧٥
تفسير الألفاظ وتحليلها	٧٦
القراءات القرآنية	٨٨

الموضـــــــــــوع	الصفحة
المعنى العام للآيات	٨٩
بيان أن الله واحد وأنه خالق كل شيء (الآية : ١٦) .	٩٢
علاقة الآية بما قبلها	٩٢
تفسير الألفاظ وتحليلها	٩٢
القراءات القرآنية	٩٧
المعنى العام	٩٧
أمثلة للحق والباطل (الآيات : ١٧-١٨) .	١٠٠
علاقة الآيات بما قبلها	١٠٠
تفسير الألفاظ وتحليلها	١٠٠
القراءات القرآنية	١٠٨
المعنى العام	١٠٩
مدح أولي الألباب وجزاؤهم (الآيات : ١٩-٢٤)	١١١
علاقة الآيات بما قبلها	١١١
تفسير الألفاظ وتحليلها	١١١
القراءات القرآنية	١٢١
المعنى العام	١٢٢
الأشقياء وجزاؤهم (الآية : ٢٥) .	١٢٧
علاقة الآية بما قبلها	١٢٧
تفسير الألفاظ وتحليلها	١٢٧
الرزق على الله والهداية لمن آمن بالله (الآيات: ٢٦-٢٨)	١٣٠
علاقة الآيات بما قبلها	١٣٠
تفسير الألفاظ وتحليلها	١٣٠
القراءات القرآنية	١٣٤
المعنى العام	١٣٤
حسن العاقبة للمؤمنين وبيان بعثة الرسول ﷺ (الآيات: ٢٩-٣١)	١٣٧
علاقة الآيات بما قبلها	١٣٧

الموضـــــــــــوع	الصفحة
تفسير الألفاظ وتحليلها	١٣٧
القراءات القرآنية	١٤٧
المعنى العام	١٤٧
تسلية النبي ﷺ وعقاب الكافرين وثواب المتقنين(الآيات:٣٢-٣٥)	١٥٠
علاقة الآيات بما قبلها	١٥٠
تفسير الألفاظ وتحليلها	١٥٠
القراءات القرآنية	١٦٠
المعنى العام	١٦١
دفع شبهات المشركين حول نبوة النبي ﷺ (الآيات: ٣٦-٣٩)	١٦٣
علاقة الآيات بما قبلها	١٦٣
سبب نزول الآيات	١٦٣
تفسير الألفاظ وتحليلها	١٦٤
القراءات القرآنية	١٧١
المعنى العام	١٧١
محمد الرسول وشهادة الله له (الآيات : ٤٠-٤٣)	١٧٣
علاقة الآيات بما قبلها	١٧٣
تفسير الألفاظ وتحليلها	١٧٣
القراءات القرآنية	١٧٨
المعنى العام	١٧٩
الخاتمة	١٨١
قائمة أهم مراجع البحث	١٨٥
فهرس الموضوعات	١٨٩

تم بحمد الله -سبحانه وتعالى-